الفصل الرابع

الجوانب العملية
في الثقافة الإسلامية

ويشتمل على المبحثين الآتيين

١ ـ الجهاد . . فريضة مستمرة

٢ ـ التضامن الاسلامي ، قضية مصيرية

توطـــئة

إن الثقافة الإسلامية ليست قضايا نظرية ، ولا تجريدية فقط ، وإنما هي نمط من التصور والسلوك معاً .

وإذا ظل الفكر حبيس العقل والوجدان ، غير مترجم في صياغته للحياة ، أو في بعض المواقف التي تعكس ملامحه ، وتثبت وجوده ، وتميزه . . . إذا ظل الفكر حبيساً على هذا النحو ، فإنه يفقد فعاليته وتأثيره ، ويصبح أقرب إلى الخيال الشعري ، أو إلى الأفكار « الطوباوية » التي بنت مدناً فاضلة على أرض الأحلام والأوهام .

من هنا ، فإن الثقافة الإسلامية لا بد أن يجسدها المسلم في « برنامج » خاص لحياته ، كما لا بد أن تكون ثمة (مواقف) اجتماعية واقتصادية وإنشائية ، تعكس حقائق الثقافة الإسلامية ، وتظهر آثارها القريبة والبعيدة ، والجزئية والكلية .

وقد رأينا ـ في بحثنا هذا ـ أن نكتفي بتقديم موقف الثقافة الإسلامية من قضيتين مصيريتين بالنسبة للأمة الإسلامية ، وهما في الوقت نفسه موقفان عمليان ، يمثلان بداية وانطلاقة أساسية لنهضة الأمة الإسلامية ورقيها واستجابتها الممتازة للتحديات الخارجية ـ لو نجحت فيهما ـ إنهما قضيتا « الجهاد » و« التضامن الإسلامي » .

الجهاد في الإسلام

قبل أن أفصل القول في موضوع الجهاد في الاسلام أود أن أتكلم عن الحرب بصورة عامة . .

منذ أن وجدت البشرية على سطح الكرة الأرضية ، وهناك صراع بين الحق والباطل ، بين قوى الخير وقوى الشر ، ولعل هذا ما يشير اليه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ، فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ، قَالَ : لأَقْتُلَنَّكَ ، قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِيْنَ ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِيْ ، مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّيْ أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِيْنَ ، إِنِّيْ أُرِيْدُ أَنْ تَبُوْأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُوْنَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِيْنَ ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيْهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ ، فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِيْ سَوْأَةَ أَخِيْهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِيْ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِيْنَ ﴾[1] .

ويذكر لنا القرآن الكريم موقف موسى عليه السلام من بني إسرائيل وقد طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة ، ويقاتلوا القوم الجبارين ، فجبنوا وتقاعسوا وتخاذلوا ، وهذا هو شأنهم دائماً ، النكث بالعهود ، وعدم الاستجابة للأوامر ، وظهورهم على حقيقتهم الجبانة إذا داهمهم خطر محقق ، قال الله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِيْنَ ، قَالُوا يَا مُوْسَىٰ إِنَّ فِيْهَا قَوْماً جَبَّارِيْنَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُون ، قال رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِيْنَ يَخَافُونَ

---

(١) الآيات (٢٧ ـ ٣١) من سورة المائدة .

أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ، قَالُوا يَا مُوْسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أبداً ما داموا فِيْهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[1] .

وقال سبحانه مبينا دفع الناس بعضهم ببعض : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيْهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ ﴾[2] .

ويمكن ارجاع الحرب التي تحدث بين الشعوب والأمم الى أسباب ذكرها ابن خلدون في مقدمته[3] .

١ ـ المنافسة التي تحدث بين القبائل المتجاورة عادة ، ولعل الحروب الطاحنة التي دارت رحاها بين القبائل العربية قبل الإسلام تؤيد هذا السبب ، وتبرز صحته ، وأذكر على سبيل المثال من تلك الحروب ، حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس .

٢ ـ العدوان الذي ينشأ بين الأمم المتأخرة في مضمار الثقافة والحضارة ، وكثيراً ما تستهدف تلك الأمم استغلال الشعوب المستضعفة وبسط سلطانها عليها . لتسخيرها لأغراضها العدوانية وللاستفادة من منافع بلادها بغير حق .

٣ ـ الغضب لله ولدينه وهو الجهاد المشروع في الإسلام ، ومن أنواعه الدفاع عن كلمة التوحيد ، والسعي لعبادة الله في الأرض وإقامة شعائر الدين .

٤ ـ غضب للسلطان وهي الحرب التي يخوضها صاحب السلطان ضد المتمردين على حكمه الخارجين على سلطانه[4] .

أما الجهاد في الاسلام فهو جهاد إنساني ، لم يشهد المؤرخون أنبل من أغراضه ولا أسمى من أهدافه ولا أرفع من مقاصده ، فهو يجنح للسلم إن طلب

---

(١) من سورة المائدة (٢٠ ـ ٢٤) .

(٢) سورة الحج الآية (٤٠) .

(٣) المقدمة ١/ ٢٢٦ ط الاعلمي بيروت عام ١٩٧١ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ١/ ٢٢٦ .

العدو ، وهو رحيم رفيق لا يعتدي ولا يأخذ على حين غرّة ، ولا يقتل شيخا مسنا ولا امرأة ولا طفلا ولا آمنا غير باغ ولا آثم . وشريعة الإسلام في الجهاد شريعة عادلة غير معتدية كغيرها من الشرائع الإسلامية التي جاءت لتحمي لا لتبدد ولتعدل لا لتبغي ولتوحد لا لتفرق ولتنشر السلام والأمن لا لترهب الضعيف الآمن .

لقد ظل رسول الله ﷺ في مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة ، يدعو إلى عقيدة التوحيد بالحسنى ، ويصبر على أذى المؤذين ، واعتداء المعتدين ، ولم تمتد يده الشريفة لرد الأذى ، أو لدفع العدوان بعدوان مثله ، وإنما ﷺ ـ صبر وصابر وحث المسلمين على الثبات والتحمل والدفع بالحسنى ، ورد الإيذاء بالقول الحكيم حتى ضاقت نفوس الصحابة رضوان الله عليهم مما عانوا ، ومما لاقوا من عنت المشركين ومن مضايقة الضالين ومن اعتداء المعتدين ، فما كان منهم إلا أن تركوا الديار والأهل والأوطان ، تركوا ملاعب الصبا ، ومرتع الشباب ، تركوا الأحبة والأصحاب وهان عليهم المال والممتلكات ، فهاجروا من مكة إلى الحبشة مرتين فرارا بدينهم وإيثارا لما عند الله من ثواب وأجر .

قال الله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيْنَ ﴾[1] وقال : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيْمٌ ﴾[2] وقال جل من قائل ﴿ وَالَّذِيْنَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُوْنَ قَالُوا سَلَاماً ﴾[3] وقال : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾[4] .

ونزلت الآيات تترى في تثبيت جنان الرسول ﷺ وفي الصبر على تحمل واجبات الدعوة ، وفي احتمال الأذى ، قال سبحانه : ﴿ أُدْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[5] . وقد كانت الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة تنفذ من وراء الحجب ، وتدخل الى النفوس والقلوب ، فتلين لها القلوب وتخضع لها النفوس وتهذب بها الاخلاق وتسمو بها

---

(١) سورة الأعراف / ١٩٩ .
(٢) سورة فصلت / ٣٤ .
(٣) سورة الفرقان / ٦٣ .
(٤) سورة الأحقاف / ٣٥ .
(٥) الآية (١٢٥) من سورة النحل .

الأرواح ، وتطمئن لها الضمائر وتنشط الاجسام ، وتستنير العقول . وكان كل من يعرف الإسلام ويقتنع بهذه الدعوة المثلى يذهب إلى قومه ويبشرهم بجنة عرضها السماوات والأرض إنْ هُمْ نطقوا بالشهادتين إيمانا واحتسابا ، وإن هم اطمأنوا بالتوحيد وإن صدقت قلوبهم رسول الله ﷺ فيما يدعو .

ودخل الناس في دين الله أفواجا . . ولكن الشر وأعوانه والشرك وأتباعه والباطل وأهله ساءهم ظهور الحق ، وساءهم أن يروا الناس مؤمنين موحدين ، فأوقعوا الأذى المادي والمعنوي والعذاب بكل أصنافه وبشتى مراتبه بالنفوس الأبية الموحدة ، وانتفش الضلال،وازداد المكر وظن الكفر أن الصولة والجولة له فتعمق في غوايته وتفنن في مفاسده ، وكانت حربا نكراء على المسلمين المؤمنين إذ أن وجود الإسلام والمسلمين المتمسكين به يرعب الكافرين ويخيف أعداء الدين . والله مع الذين آمنوا والذين هم محسنون ، واتجهت إرادة الله سبحانه لابتلاء المؤمنين ولتمحيصهم ، ولإظهار حقيقة تمسكهم بالحق وثباتهم عليه وتفانيهم في سبيله . . ففرض الجهاد بعد الهجرة إلى المدينة المنورة . .

تعريف الجهاد :

عرف العلماء الجهاد لغة بأنه المشقة ، فيقال : جهدت جهاداً أي بلغت المشقة . وجاهد العدو مجاهدةً وجهاداً : قاتله ، وجاهد في سبيل الله وفي الحديث (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية) ، والجهاد محاربة الأعداء وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل ، والمراد بالنية إخلاص العمل لله أي أنه لم يبق بعد فتح مكة هجرة لأنها قد صارت دار إسلام وإنما هو الإخلاص في الجهاد وقتال الكفار .

والجهاد : المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء . وفي حديث الحسن : لا يجهد الرجل ماله ثم يقعد يسأل الناس ، قال النضر : قوله لا يجهد ماله ، أي يعطيه ويفرقه جميعه هٰهنا وهٰهنا وهذا في قوله تعالى : ﴿ ويَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾[1] .

وشرعاً هو بذل الجهد في قتال الكفار لأن الكفر بالله يعتبر من أكبر الجرائم

---

(١) الآية (٢١٩) من سورة البقرة / انظر لسان العرب ، فتح الباري ٣/٦ ، نيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٢٢٠ .

الشنيعة التي يرتكبها مخلوق في حق خالقه لما فيه من عقوق وجحود للفضل والجميل .

ويطلق الجهاد في الشرع أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق ، وتتحقق مجاهدة النفس بتعلم أمور الدين . لقول الله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنه لا إله إلاَّ الله ﴾[1] ، ولقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[2] ولقول رسول الله (من يرد الله به خيرا يقفهه في الدين)[3] ، ولقولهﷺ (العلماء هم ورثة الأنبياء)[4] كما يتحقق بأمور الدين بالعمل وتعليمها ونشرها مصداقاً لقول الرسول ﷺ : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقَوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[5] وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كونوا ربانيين حلماء فقهاء . ويقال : الرّباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره .

أما مجاهدة الشيطان فإنها تتحقق بدفع ما يأتي به من الشبهات ، وما يزينه من الشهوات ، إذ أن الشيطان متوعد لآدم وبنيه ، بقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾[6] .

وأما مجاهدة الفساق فتتحقق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبإلزامهم على الحق واتباعه ، واجتناب المنكر والتبرىء منه لقول الرسولﷺ : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) وفي رواية (وليس بعد ذلك من حبة خردل من إيمان) .

---

(١) سورة محمد ١/ لاية (١٨) .

(٢) سورة أبو داود ٣٦٤١ والترمذي ٢٦٨٢ .

(٣) فتح الباري على صحيح البخاري ١/ ١٦٠ ، ١٦٤ .

(٤) سورة فاطر الآية / ٢٨ .

(٥) فتح الباري بصحيح البخاري ١/ ١٧٥ .

(٦) سورة الأعراف ١٦-١٧ .

وأمّا مجاهدة الكفار فتقع باليد والمال واللسان والقلب ، وتكون مجاهدتهم أكبر وآكد إذا اعتدوا على حرمات المسلمين وأوطانهم ومقدساتهم إلى أن يعوْد الأمن إلى ديار المسلمين وتعلو كلمة الله دون أن تحد منها فتنة المفتنين وضلالة المضلين .

قال الله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوْهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُوْنَ فِتْنَةٌ وَيَكُوْنَ الدِّينُ لله ﴾[1] .

يقول الأستاذ سيد قطب مبينا معنى هذه الآية الكريمة : « إذا كان النص - عند نزوله - يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة ، وهي التي تفتن الناس وتمنع أن يكون الدين لله ، فإن النص عام الدلالة مستمر التوجيه ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة ، ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله ، والاستجابة لها عند الاقتناع والاحتفاظ بها في أمان ، والجماعة المسلمة مكلفة في كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة وتطلق الناس أحرارا من قهرها يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله »[2] .

وللجهاد سبل كثيرة يتحقق بكل واحد منها معنى من معاني الجهاد أشير الى أهمها :

١ ـ الجهاد بالنفس :

أي أن يذهب المؤمن بنفسه ويقاتل أعداء العقيدة وأعداء الدين . والجهاد بالنفس أعلى مراتب الجهاد وأعظمها قدرا وأعلاها شأنا ، وهل يملك الإنسان أغلى من روحه فيجود بها في سبيل الله . . قال رسول الله ﷺ : (انتدب الله لمن خرج في سبيله - لا يخرجه إلا إيمان وتصديق برسلي - أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل)[3] .

---

(١) سورة البقرة آية / ١٩٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٧/ ٣٧٣ .

(٣) صحيح البخاري ١/ ٩٢ .

٢ ـ الجهاد بالمال :

فالمسلم القادر يجهز نفسه ويجاهد فيكون قد جمع بين فضيلتين عظيمتين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال ، وقد يكون غير قادر جسميا على القتال ، ولكنه قادر ماليا فينفق من ماله لمساعدة المجاهدين بالنفس .

وفي عهد الرسولﷺ كان المجاهد المسلم يجهز نفسه بعدة القتال وبمركب القتال وبزاد القتال ، ولم تكن هناك رواتب يتناولها القادة والجند وإنما كان تطوعا بالنفس وتطوعا بالمال . . وهذا شأن العقيدة حينما تفتقر في القلب وفي المجتمع ، إنها لا تحتاج إلى أن ينفق عليها لتحمى من الأعداء وإنما يتقدم القادة ويتقدم الجند متطوعين ينفقون هم عليها .

وكان كثير من الفقراء المسلمين الراغبين في الجهاد والذود عن منهج الله ورواية العقيدة لا يجدون ما يزودون به أنفسهم ولا ما يتجهزون به من عدة ومركب فيلجأون إلى النبيﷺ يطلبون منه الوسيلة التي تحملهم إلى ميدان المعركة البعيد الذي لا يبلغ على الأقدام ، فإذا لم يجدوا ذلك : ﴿ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾[1] .

٣ ـ المساعدة على الجهاد :

وذلك بالإسهام في كل عمل من شأنه التمكين من أسباب النصر :

ويتحقق هذا بمضاعفة الجهد في الإنتاج الحربي سواء كان ذلك بالصناعة أو الزراعة أو التجارة ، وبالمساهمة في جلب المعدات الحربية أو العمل على إنتاجها وترقية مستواها لتضارع أرقى الأسلحة وأقواها .

ويتحقق الجهاد أيضا بإعداد الجنود إعدادا دينيا تربويا وخلقيا وعسكريا ، ومن ثم تدريبهم على أحدث الأسلحة وأجودها حتى يكونوا مسلمين مجاهدين ، فالتربية والخلق مطلب ديني حري أن يتحقق ، والخلق قبل التدريب على حمل السلاح وقبل التحام الجيشين للقتال لأننا نحن المسلمين نقاتل من أجل عقيدة لها قيمها ولها مبادؤها ولها مثلها ، وإذا أردنا أن ننتصر على قوى الشر فعلينا أن نقف

---

(١) سورة التوبة / ٩٢ .

على قاعدة صلبة من الإيمان والتقوى والخلق فإننا بهذه المثل نستطيع أن ننتصر ، والله سبحانه ينجز وعده للمتقين الذين يحيون بالعقيدة ومن أجلها ، أما أولئك الذين يتركون العبادات ويفعلون المنكرات ويرتكبون ما حرم الله ففيم يريدون أن يجاهدوا . . فهؤلاء فاسقون يجب جهادهم أولا . . وهم في حقيقة الأمر ليسوا جنودا للإسلام وإنما هم جنود للأهواء والشهوات . إن الجندي المسلم هو الذي يحمل المصحف بيد ويحمل السلاح باليد الثانية ، هذا المجاهد حقا وهذا الذي وعده الله بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الجنة . .

ويتحقق الجهاد بالتبرع بالدم كما يتحقق بالتبرع بالمال سواء بسواء ويتحقق أيضا بحراسة أجهزة الدولة العامة من تخريب العدو ، وبالتصدي لدعايات العدو وإشاعات المنافقين والمغرضين ومن ثم كشفها والرد عليها بالكلمة الواضحة .

ويتحقق الجهاد بالعمل البنَّاء لإقامة التضامن الإسلامي وتكتيل جهود المسلمين وتوطيد أواصر المحبة بينهم وتوجيه قواهم المادية والمعنوية لمقاومة العدو المتربص بالمسلمين الدوائر .

وعلى المؤمنين أن يحفظوا أسرار المجاهدين كي لاتتسرب إلَى العدو . . وأن يعملوا على رعاية أسر المقاتلين والشهداء أي نوع من أنواع الحماية والإحسان تصديقا لقول رسول الله ﷺ (من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا)[1] و(إن النبي ﷺ لم يكن يدخل بيتا بالمدينة غير بيت أم سليم ، إلا على أزواجه فقيل له وقال إني أراه قتل أخوها معي)[2] .

تاريخ تشريع الجهاد في الاسلام :

قال ابن كثير في تفسيره :

« وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به ، لأن المسلمين كانوا بمكة أقل عددا ، وكان المشركون أكثر عدة وعدداً ، فلو أمر المسلمون ، وهم أقل من العشر ـ بقتال الباقين لشق عليهم ذلك . .

---

(١) فتح الباري ٦/ ٤٨ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق .

فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ـ ﷺ ـ من بين أظهرهم وهموا بقتله ، وشردوا أصحابه شذر مذر فذهبت منهم طائفة الى الحبشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه وقاموا بنصره ، وصارت لهم دار إسلام ومعقلا يلجأون إليه شرع الله جهاد الأعداء »[1] .

ويرى بعض المفكرين الإسلاميين أن هناك حكمة أخرى من وراء تأخير تشريع الجهاد إلى ما بعد الهجرة وهي أن الإسلام يحرص كل الحرص على تربية نفوس المؤمنين كي يصبحوا أهلا لتحمل الأمانة وأهلا للدفاع عن العقيدة فأصل فيهم الفضائل وبذر فيهم بذور الصبر والمصابرة والثبات والمجاهدة ، واحتمال المكاره[2] وأعدهم إعداداً جعل منهم نماذج فريدة للشجاعة والثبات والنضج والوعي ، يهابهم المشركون ويحتسبون منهم ، ويخافون من مواجهتهم رغم قلة عددهم . . والإيمان يفعل الأعاجيب ويورث في النفس البشرية شحنة عادية من الطاقة المتدفقة ورصيداً هائلاً من القوة الفاعلة الدافعة . . فإذا ما تفجرت منطلقة لا تدع أمامها باطلاً قائماً ولا شركاً مشرئباً ولا فساداً ناهضاً إنها قوة العقيدة والإيمان إذا تأصلت في النفس الانسانية . حولتها مخلوقا آخر ، مخلوقا قويا شجاعا لا يهاب في الله أحداً ولا يأخذه من أجل الله ضعف ولا خور ولا مداهنة ولا ملاينة إذ ليس في العقيدة مجال للمداهنة أو الملاينة ، فإما أن يسود الخير والعدل وإما أن تتآخى قوى الخير وتتآزر جموع المؤمنين وتقضي على الباطل من جذوره ومن أصوله . . ولا تترك له مطمعا في العودة أو منفذاً للصولة والجولة .

وقد اتفقت كلمة علماء المسلمين على أن الجهاد إنما شرع بعد الهجرة حيث واصل المشركون عدوانهم على المؤمنين وذلك بتعذيب من بقي منهم بمكة وملاحقة من هاجر إلى المدينة ، وبحبك المؤامرات للقضاء على الدعوة في مهدها وحبس الرسول صاحب الدعوة ﷺ وإزاء هذا العدوان المرير المتواصل وأمام تجاوز قريش لحدود العقل والمنطق في إيقاعها الضرر تلو الضرر بالمسلمين المؤمنين البررة الأتقياء أَذِنَ الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بالقتال ردا للعدوان وتثبيتا لدعائم الدولة الاسلامية .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٥ . بتصرف يسير ، ط . دار إحياء الكتب العربية .

(٢) الإسلام والحرب ومصادره .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيْرٌ . الَّذِيْنَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا الله وَلَولاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيْهَا اسْمُ الله كَثِيْراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ . الَّذِيْنَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾[1] .

قال (ابن قيم الجوزية) في كتابه (زاد المعاد) : « إن الله تبارك وتعالى لم يأذن للمسلمين في القتال بمكة ، إذ لم يكن لهم يومذاك شوكة يتمكنون بها من القتال . وإن سياق الآية يدل على أن الإذن كان بعد الهجرة وبعد إخراجهم من ديارهم فإنه سبحانه قال : ﴿ الَّذِيْنَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا الله ﴾ وهؤلاء هم المهاجرون .

وان الله سبحانه أمر المؤمنين بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد والسيف والآلة وغير ذلك ، ولا ريب أن الامر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة فأما جهاد الحجة فهو يختلف عن القتال اختلافا بينا ، والفرق بينهما جلي وظاهر وقد أمر الرسول ﷺ بجهاد الحجة في مكة المكرمة بقول الله تبارك وتعالى ﴿ فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِيْنَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيْراً ﴾[2] . فهذه الاية الكريمة مكية ، والمراد بالجهاد فيها جهاد التبليغ والبيان وجهاد الحجة والدليل والبرهان »[3] .

سبب تشريع الجهاد :

قد يظن كثير من الناس أن سبب تشريع الجهاد في الإسلام يرجع إلى اختلاف العقيدة والدين ، والشريعة والمنهج مع أصل الديانات الأخرى وهذا الظن باطل وغير صحيح ، إذ أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يقبل أن يهادن أهل الديانات الأخرى وأن يعيش معها معايشة سلمية .

والإسلام دين حجة وبرهان ، وإحقاق للحق ، دين اقتناع عقلي وتذوق

---

(١) سورة الحج الآيات / ٣٩ ـ ٤١ .

(٢) سورة الفرقان / ٥٢ .

(٣) زاد المعاد ٢/ ٦٥ .

وجداني لم يكن ليلزم أحداً على الدخول فيه إلزاما ، ولم يرغم أحداً على قبوله ؛ فكيف يتهم هذا الاتهام وهو الدين الإلهي الذي جاء ليحرر العقل والوجدان قال الله تعالى :﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[1] .

وهذا التاريخ شاهد عدل ، وحكم فصل ، فلنسأل التاريخ ولنسأل المؤرخين المنصفين : هل نَعُمَ أهل الديانات الأخرى بحرية التعبد وإقامة الشعائر الدينية ، وحرية القول والرأي بالقَدْر الذي نعموا به في ظل الاسلام ؟ كلا . . لم يعرف التاريخ دينا عادلاً ومتسامحاً مع الديانات الأخرى كالدين الاسلامي ولم يعرف التاريخ مجتمعاً إنسانياً منح أهل الديانات الأخرى من الحقوق الدينية والمدنية ومن الرعاية الكاملة بالقدر الذي منحه الإسلام لهم .

ولذلك نقول بكل ثقة وبكل يقين إن الجهاد في الإسلام إنما شرع لرد العدوان ودفع الشر وللدفاع عن النفس ، وهو مبدأ لا يمكن أن يجادل فيه عاقل منصف نزيه مهما كان معتقده . .

وقد واصل المشركون كيدهم اللئيم ومكرهم الخبيث وعدوانهم المتزايد على المسلمين أينما حلوا وفوق أي أرض نزلوا ، وفي أي البلدان وجدوا ، وإلى أي الأقطار اتجهوا يوقعون بهم شتى أنواع الأذى ، ومختلف ضروب العذاب ليفتنوهم عن دينهم وليردوهم على أعقابهم وقد هموا بما لم ينالوا ، هموا بقتل الرسولﷺ صاحب الدعوة وحامل الرسالة ، لولا أن تدخلت عناية الله وحمته من اليد الآثمة الشريرة ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[2] .

وأمام تزايد ظلم قريش تطلع المؤمنون بالأمل الوثاب إلى يوم عزيز يأذن الله به بقتال الكافرين ، ليجدوا طريقا مشروعا وسبيلاً سليماً يرفعون به ما لحقهم من ضيم وهوان ، ويردون به ما نالهم من أذى وعذاب ، ويستردون ما غصب منهم من حق ومال وممتلكات . .

وعلى هذا فإن الإسلام دين عزة وقوة ومنعة ، وليس بدين استسلام واستكانة ، ورضا بالهوان وطلب معيشة ذليلة وهو لا يرضى للمسلمين الخنوع

---

(١) من سورة البقرة الآية / ٢٥٦ .

(٢) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

والجبن وقبول واقع مرير وحياة وضيعة ، والفضيلة كل الفضيلة تتجلى في رد الاعتداء ومنع الخضوع للاقوياء المشركين ، ولو ترك الأشرار وشأنهم يعيثون فساداً من غير رادع يردعهم ولا مانع يمنع طغيانهم وبغيهم لعَمَّ الفساد في البر والبحر قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُوْ فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِيْنَ ﴾[1] .

ولعل الحكمة من مشروعية الجهاد في الإسلام قد استبانت ويمكن إرجاعها إلى العوامل التالية :

١ ـ الدفاع عن النفس .
٢ ـ رد العدوان .
٣ ـ تأمين حرية العقيدة وإقامة الشعائر الدينية .

قال الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود في كتابه (الجهاد المشروع في الإسلام) : « لقد عشنا زمنا طويلاً ونحن نعتقد ما يعتقده بعض العلماء وأكثر العوام من أن قتال الكفار سببه الكفر ، وأن الكفار يقاتلون حتى يسلموا لكننا بعد أن توسعنا في علم الكتاب والسنة والوقوف على سيرة الرسولﷺ تحققنا بأن القتال في الإسلام ، إنما شرع دفاعا عن الدين وعن أذى المعتدين على المؤمنين ، وليس هذا بالظن ولكنه اليقين ثم استشهد بقول ابن تيمية (الصحيح أن القتال شرع لأجل الحرب لا لأجل الكفر ، وهذا هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة وهو مقتضى الاعتبار ، وذلك أنه لو كان الكفر هو الموجب للقتال لم يجز إقرار كافر بالجزية »[2] .

مراحل تشريع الجهاد :

إن المتتبع لآيات الجهاد وزمن نزولها وأقوال علماء التفسير فيها يرى أن فريضة الجهاد قد مرت بمراحل تشريعية يمكن إجمال الكلام عنها في نقاط أساسية هي :

---

(١) الآية ٢٥١ من سورة البقرة .
(٢) الجهاد المشروع في الإسلام (ص ٧ وما بعدها) .

١ ـ **المرحلة الأولى** : تتمثل في الرد على عدوان كفار مكة والتصدي لإيذائهم وظلمهم ، وهذا ما يفهم من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقَاتَلُوْنَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوْا وإن الله عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيْرٌ ﴾[١] يؤيد هذا المعنى المستفاد من الآية ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن أبا بكر قال حين نزلت هذه الآية (فعرفت أنه سيكون قتال) .[٢]

٢ـ **المرحلة الثانية** : السماح للمسلمين بقتال من يعتدي عليهم ، ولعل هذا المعنى هو الذي يشير اليه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَاتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ الله الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ ، وَلاَ تَعْتَدُوْا إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ ﴾[٣] وقوله سبحانه : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوْا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[٤] .

٣ ـ **المرحلة الثالثة** : الاذن بقتال اليهود وإخراجهم من ديارهم ، ذلك لأنهم نقضوا ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق وتآزروا مع أعداء الدعوة لقتال المسلمين وقتال رسول الله ﷺ ، فأنزل الله سبحانه قوله الكريم : ﴿ الَّذِيْنَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُوْنَ عَهْدَهُمْ فِيْ كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُوْنَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ . وإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِيْنَ ﴾[٥] .

٤ ـ **المرحلة الرابعة** : الإذن بقتال قوى الشر متمثلة باليهود والنصارى الذين تكتلوا ووقفوا ضد الدعوة الإسلامية ومنعوا الناس من الدخول في دين الله . وهذا المعنى يفيده قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قَاتِلُوْا الَّذِيْنَ لاَ يُؤْمِنُوْنَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُوْنَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُوْلُه وَلا يَدِيْنُوْنَ دِيْنَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوْا الْجِزْيَةَ عن يد وهُمْ صَاغِرُوْن ﴾[٦] .

٥ ـ **المرحلة الخامسة** : الاذن بقتال أعداء الإسلام عامة من مشركين

---

(١) الآية (٣٩) من سورة الحج .
(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٤ .
(٣) الآية (١٩٠) من سورة البقرة .
(٤) الآية (١٩٤) من سورة البقرة .
(٥) من سورة الأنفال الآيات (٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨) .
(٦) سورة التوبة الآية (٢٩) .

ووثنيين وأهل كتاب نظرا لتكتل هذه الطوائف ، ومحاربتها للإسلام والمسلمين . وفي هذه المرحلة أصبح الجهاد عاما غير مقيد بزمن ولا بوقت ولا بفئة من الكافرين .[1]

يقول ابن كثير في تفسيره : (ثم أمر الله بقتال الكفّار « حتى لا يكون فتنة » أي شرك « ويكون الدين لله » أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان)[2] .

يتبين مما تقدم أن القتال في الإسلام ما هو إلا وسيلة لحماية الدعوة والدعاة من العدوان ، وإن أصل العلاقات الدولية في اعتبار الإسلام السلم والسلام . قال ابن تيمية رحمه الله : (إذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ، ومقصوده هو أن تكون كلمة الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا ، فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين ، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمن فلا يقتل عند جمهور العلماء)[3] .

وعلى هذا فمن لم يقاتل المسلمين ولم يمنعهم من إقامة دين الله لا يقاتل لأن مضرة كفره قاصرة على نفسه .[4] يؤكد هذا القول تفسير ابن كثير لقوله تعالى : ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِيْنَ ﴾ حيث يقول : (فإن انتهوا عما هم فيه من الشك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم ، فإنَّ من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين ، وهذا معنى قول مجاهد : لا يقاتل إلا من قاتل) .[5]

فضل الجهاد :

الجهاد في سبيل الله مكرمة ، أي مكرمة ، وعزة أي عزة ، وهو أفضل الأعمال على الإطلاق ، عند الله تبارك وتعالى ، وثوابه يربو عن ثواب الحج والعمرة والصيام والقيام ، ويكفيه فضيلة أن الله تبارك وتعالى قد تكفل للمجاهد إما بالنصر والظفر أو بالجنة والعاقبة الحسنى ، وقد فاز الجهاد بالعديد من الآيات

---

(١) الاسلام والحرب ص ٢٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٢٢٧ .

(٣) السياسة الشرعية ص ١٢٣ ط ، دار الكتاب العربي بالقاهرة .

(٤) الإسلام والحرب ص ٢٤ ، وانظر السياسة الشرعية ص ١٢٤ .

(٥) تفسير ابن كثير ١ / ٢٢٧ .

الكريمة التي تشهد له بالفضل والتي تعد المجاهدين بالمثوبة التي لا تعادلها مثوبة ، وإن الجهاد تجارة رابحة مع الله الديان الكريم الغني المعطي الرحيم . .

قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيْمٍ ، تُؤْمِنُوْنَ بِالله وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِيْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّوْنَهَا نَصْرٌ مِنَ الله وَفَتْحٌ قَرِيْبٌ ﴾[1] .

وقال جل من قائل : ﴿ لاَ يَسْتَوِيْ الْقَاعِدُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ غَيْرَ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ الله ﴾[2] .

وقال : ﴿ إِنَّ الله اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ الله فَيَقْتُلُوْنَ وَيُقْتَلُوْنَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾[3] .

وقال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِيْ سَبِيْلِ الله لاَ يَسْتَوُوْنَ عِنْدَ الله ﴾[4] .

كما حظي الجهاد بالجم الكثير من الأحاديث الشريفة التي تشيد بفضله وتجعله في مقدمة ركب صالح الأعمال ثواباً وأجرا وفضيلة .

وقد ترجم البخاري في صحيحه باباً قال فيه : (الجنة تحت بارقة السيوف) وهو نص حديث مرفوع إلى النبي ﷺ قال فيه : (واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[5] .

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دلني على عمل يعدل الجهاد . قال : (لا أجده ! هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر ؟ قال : ومن يستطيع ذلك)[6] .

---

(١) سورة الصف الآيات (١٠-١٣) .

(٢) سورة النساء/ ٩٥ .

(٣) سورة التوبة الآية (١١١) .

(٤) سورة التوبة الآية (١٩) .

(٥) فتح الباري على صحيح البخاري ٦/ ٣٢ .

(٦) فتح الباري ٦/ ٤ ، صحيح مسلم ٣/ ١٤٩٨ .

وقال ﷺ : (مثل المجاهد في سبيل الله . والله أعلم بمن يجاهد في سبيله ـ كمثل الصائم القائم ، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة)[1] .

وعلى هذا فإن الجهاد يعتبر أفضل الأعمال الصالحة مطلقا ، وفضيلته أعظم الفضائل باعتباره وسيلة إلى إعلان الدين ونصره ونشره وإخماد الكفر ودحضه ، ففضيلته بحسب فضيلة ذلك[2] .

قال الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في كتاب (السياسة الشرعية) : (لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد في الجهاد ، فهو ظاهر عند الاعتبار ، فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة ، فإنه مشتمل من محبة الله تعالى والإخلاص له والتوكيل عليه وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر . والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنيين دائما ، إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة)[3] .

أجر المجاهدين :

إن للمجاهد منزلة رفيعة في مقياس الناس وفي ميزان العدالة الإلهية ، وإن الشهيد في مقام كريم عند رب العزة ، وفي حواصل طيور خضر عند جنة المأوى وليس أحداً من أهل الجنة يتمنى أن يرجع الى الدنيا إلا الشهيد ،[4] فإنه يود أن يقاتل ويقتل مرة ثانية ليحظى بما حظي به في المرة الأولى من روعة الاستقبال ، وبهجة اللقاء . قال رسول الله ﷺ : (طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة . إن استأذن لم يؤذن وإن شفع لم يشفع)[5] ، وقد شهدت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالحياة المنعمة التي لا موت فيها لمن قتل شهيداً .

---

(١) فتح الباري ٦/ ٦ .

(٢) فتح الباري ٦/ ٥ وهو من كلام ابن دقيق العيد .

(٣) السياسة الشرعية ص ١٢٢ وما بعدها الطبعة الرابعة عام ٦٩ .

(٤) فتح الباري ٦/ ٨١ .

(٥) فتح الباري ٦/ ٨١ .

قال سبحانه : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللهِ أَمْوَاْتاً بَلْ أَحْيَاْءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ ﴾[1] ، وقال رسول الله ﷺ :(عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله)[2] .

وروى أن مالك الأشعري قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : من فصل[3] فمات أو قتل فهو شهيد ، أو وقصه فرسه أو بعيره أو لدغته هامة أو مات على فراشه . أو بأي حتف شاء الله فهو شهيد وإن له الجنة)[4] .

وقال ﷺ : (إن في الجنة لمائة درجة ، ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله)[5] .

وقال عليه الصلاة والسلام (من أغبر قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار)[6] .

وقال ﷺ (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات أجري عليه عمله الذي كان يعمله ، وأجري عليه رزقه ، وأَمِنَ الفتَّان)[7] .

وعن أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة ابن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله . . ألا تحدثني عن حارثة ؟ وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب . فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء . قال : يام أم حارثة إنها جنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى)[8] .

روي عن أبي سعيد أن رجلاً قال : (أي الناس أفضل يا رسول الله ؟ قال

---

(١) سورة آل عمران / ١٦٩

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٣) خرج من منزله .

(٤) رواه ابو داود .

(٥) متفق عليه . انظر السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٢١ .

(٦) اغبر قدماه أي تعفرت قدماه . والحديث رواه البخاري .

(٧) الفتان ج فاتن وهو ما يفتن الميت في قبره ويضله عن السؤال . انظر الجامع للأصول ٤/ ٣٤١ . وفي القاموس الفتان بمعنى الشيطان ، والحديث رواه مسلم في صحيحه .

(٨) فتح الباري ٦ / ٢٦ .

ﷺ : (مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله)[1] وفي رواية لأبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه . يبتغي القتل والموت مظانه)[2] وقال رسول الله ﷺ : (أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش . تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل)[3] .

قال رسول الله ﷺ : (ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة)[4] .

من هو الشهيد :

قد يظن بعض الناس أن كل من يقاتل فيقتل في المعركة فهو شهيد ، وهذا الظن غير صحيح ، ذلك لأن أغراض الحروب متباينة وأن الدوافع للقتال مختلفة ، وكل من قاتل على منافع شخصية أو مصلحة دنيوية أو من أجل مركز أو منصب أورياءوسمعة فلا يعتبر قتاله في سبيل الله ، وإنما الذي يقاتل لإعلاء كلمة الله ، ولرفع راية الإسلام وللذود عن حمى المسلمين وأرضهم وإقامة شرع الله وحدوده ، مخلصاً لله في قتاله ، فهو في سبيل الله . . وها هو ذا رسول الله ﷺ يقول : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[5] .

روى أبو موسى أن رجلاً أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله .

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (تقولون في مغازيكم فلان شهيد ومات فلان شهيداً ، ألا لا تقولوا ذلكم ، ولكن قولوا كما قال رسول الله

(٢،١) صحيح مسلم ٣ / ١٥٠٤ .

(٣) صحيح مسلم ٣ / ١٥٠٢ .

(٤) انظر فتح الباري ٦ / ٣٢ ، صحيح مسلم ٣ / ١٤٩٨

(٥) فتح الباري ١ / ١٣ و ١ / ٢٣٣ و ٦ / ٢٨ ، صحيح مسلم ٣ / ١٥١٢ .

ﷺ : « من مات في سبيل الله أو قتل فهو شهيد »[1] .

ومما تجدر الإشارة اليه ان الشهادة في سبيل الله لها مدلول عام بالإضافة الى مدلولها الخاص السابق وهو أن كل من يموت في حالة دفاع عن دينه وعرضه وشرفه وماله يعتبر شهيداً عند الله تعالى مصداقا لحديث رسول الله ﷺ : (من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)[2] .

فالحديث يدعو المسلم لأن يكون شريفا عزيزا كريما ويتحقق هذا بالمحافظة على النفس والعقل والعرض .

شروط المجاهدين في الإسلام :

قد يكون الجهاد فرض عين في حالة الدفاع عن النفس والأرض والحرمات ففي هذه الحالة يجب القتال على المسلمين جميعا رجالاً ونساءً شباباً وشيباً .

وقد يكون فرض كفاية في حالة بدء المسلمين بالقتال أي إذا قام به بعض أفراد المسلمين سقط الإثم عن الباقي ،بتوفر هذه الحالة يتعين تحديد الشروط التي يجب توفرها في المجاهدين . وقد ذكر علماء الفقه عددا من الشروط أشير الى أهمها :

الشرط الأول : الإسلام :

لقد شرع القتال في الإسلام للدّفاع عن العقيدة والذود عنها وحماية حدود الله وإقامة شرعه في الأرض ، ولا يتحقق هذا الغرض النبيل السامي إلا إذا كان الجنود مؤمنين بعقيدة التوحيد مخلصين لله في السر والعلانية ، مستميتين من أجل إعلاء كلمة الدين ، ولهذا كان من البديهي ألاّ يسند هذا الواجب الجليل العظيم إلا لمن كان مسلما يغار على دين الله ويخشى الله ويتقيه ولعل هذا هو السر الذي من أجله وجه الخطاب في آيات الجهاد إلى المؤمنين .

---

(١) فتح الباري ٦/ ٩٠ والحديث أخرجه أحمد وسعيد بن منصور من طريق محمد بن سيرين وهو حديث حسن .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا قَاتِلُوْا الَّذِيْنَ يَلُوْنَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوْا فِيكُمْ غِلْظَة وَاعْلَمُوْا أَنَّ الله مَعَ الْمُتَّقِيْنَ ﴾[1] .

وهنا نتساءل هل تجوز الاستعانة بغير المسلمين في القتال ؟ وكان في الإجابة عن هذا السؤال رأيان للفقهاء :

الرأي الأول :

لا يجوز الاستعانة بغير المسلمين . واستدل أصحاب هذا الرأي أولا بحديث أخرجه مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : (خرج رسول الله ﷺ قبل بدر ، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يتذكر منه جرأة ونجدة ، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ جئت لأتبعك وأصيب معك . قال له رسول الله ﷺ : تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : لا . قال ﷺ : (فارجع فلن استعين بمشرك) .[2] قالت عائشة رضي الله عنها : ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة . فقال له النبي ﷺ كما قال له أول مرة قال : فارجع فلن (يستعين بمشرك) . قال ثم رجع أدركه في البيداء فقال له كما قال أول مرة (تؤمن بالله ورسوله ؟) قال نعم . فقال له رسول الله ﷺ فانطلق[3] .

واستدلوا ثانيا بموقف الرسول ﷺ من جمع من اليهود خرجوا يوم أحد مع المسلمين فحين رآهم ﷺ قال : ما هذه ؟ قالوا حلفاء ابن أبيّ من يهود . . فقال رسول الله ﷺ : (لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك)[4]

إلا أن هذه الطائفة من العلماء تجيز الاستعانة بغير المسلمين في مجال التدريب على الأسلحة وفنون الحرب للاستفادة من خبراتهم القتالية قياساً على الاستعانة في تعليم المسلمين القراءة والكتابة ، وقد جعل رسول الله فدية الأسير تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة .

---

(١) سورة التوبة / ١٢٣ .

(٢) صحيح مسلم ٣ / ١٤٤٩ وما بعدها ، وحرة الوبرة موضع على نحو من أربعة أميال من المدينة المنورة .

(٣) المصدر السابق ٣ / ١٤٥٠ والمراد بقوله فانطلق إلى القتال .

(٤) طبقات ابن سعد ٢ / ٣٩ .

يقول إبن سعد في طبقاته[1] عند حديثه عن وفد ثقيف : لم يحضر عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمه حصار الطائف ، كانا بجرش يتعلمان صنعة العراوات والمنجنيق والدبابات فقدما وقد انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف فنصبا المنجنيق والعرادات والدبابات وأعدا للقتال ، ثم ألقىٰ الله في قلب عروة الإسلام وغيره عما كان عليه ، فخرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم ثم استأذن رسول الله ﷺ في الخروج إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام) .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ، فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[2] ومن التفقه في الدين المعرفة بأسرار الأسلحة وفنون القتال المستجدة والتخصص في هذه المعارف والخبرات الحربية كالتدريب على إخفاء الذخائر والمصانع والأسلحة وبناء مكامن الجنود وحفر الخنادق والتوقي من الجواسيس[3] .

الرأي الثاني :

لجماعة من الفقهاء الذين أجازوا الاستعانة بالكفار في الحرب والقتال قياساً على جواز الاستعانة بهم في مجال التدريب على استعمال السلاح ، وعلى معرفة سر صناعة أدوات القتال . واشترطوا لذلك الأمن من مكر هؤلاء الكفار ومن خداعهم والأمن من كشف أسرار المؤمنين في الحرب أو إثارة الفتن والشبهات أو الأقاويل المضللة أو استعمال الوسائل لبلبلة الأفكار .

واستدلوا أيضا بـ (أن الرسول ﷺ أمر بلالا فنادى في الناس : إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[4] .

وعارضوا الدليلين السابقين بما يأتي :

١ ـ إن قول الرسول ﷺ (لا أستعين بمشرك) منسوخ بدليل آخر وهو (شهود

---

(١) الطبقات ١ / ٣١٢ .

(٢) سورة التوبة ١٢٢ .

(٣) الاسلام والحرب ومصادره ص ٤٢ .

(٤) فتح الباري ٦ / ١٧٩ .

صفوان بن أمية حنينا مع النبي ﷺ وهو مشرك)[1] .

٢ ـ على افتراض أن الحديث غير منسوخ ولكنه لا يتعارض مع الحديث الآخر إذ يمكن حمله على حالة خاصة وهي حالة عدم الأمن من غدر المشرك أو خيانته .

ويمكن حمل هذا الحديث أيضا على معنى آخر وهو أن الرسول ﷺ لما رأى حماسة هذا المشرك على الخصوص لمساعدة المسلمين أمل في اسلامه فرد عليه الاستعانة به وهو على حالته الشركية لينوه له بجواز الاستعانة به في حالة دخوله الاسلام . وقد حصل ما توقعه رسول الله ﷺ .

الشرط الثاني : البلوغ :

يعتبر البلوغ مظنة لاكتمال القوة الجسمية والمقدرة على حمل السلاح ، والثبات في ساحة الوغى والرد على العدوان . ولذلك فإن المصاب بمرض أو بعاهة جسمية لا يعتبر أهلاً لمواجهة العدوان الله تبارك وتعالى قد حط عنه واجب الجهاد فقال سبحانه :

﴿ لاَيَسْتَوِيْ الْقَاعِدُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ غَيْرُ أُوْلِيْ الضَّرَرِ وَالْمُجَاْهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ [2] وقال ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيْضِ حَرَجٌ ﴾[3] .

وقد (رد رسول الله ﷺ البراء بن عازب وغيره يوم بدر ممن كان لم يبلغ خمس عشرة ، لأن القتال يقصد فيه مزيد القوة والتبصرة في الحرب فكانت مظنته سن البلوغ)[4] .

وكان الرسول ﷺ يتفحص الرجال المقاتلين معه فيرد من يستصغره منهم[5] .

---

(١) فتح الباري ٦ / ١٧٦ .
(٢) سورة النساء / ٩٥ .
(٣) سورة النور / ٦١ .
(٤) فتح الباري تعليق ابن حجر ١ / ١٧١ .
(٥) طبقات ابن سعد ٢ / ٣٩ .

وفي غزوة أحد ردﷺ رافع بن خديج وهو في الخامسة عشرة من عمره ، فقيل : يا رسول الله إن رافعاً يجيد الرمي ، فأجازهﷺ [1] فجاء سمرة بن جندب الغزاوي مظهراً عتابه للرسولﷺ لرده إياه من صفوف المقاتلين ولإجازته لرافع ولو تصارعا لصرع سمرة رافعاً ، فأجازهماﷺ على ما أبديا من روح نبيلة ، ومنافسة طيبة .

وفي هذه الغزوة ردّ رسول اللهﷺ أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وعمرو بن حزم وأسيد بن ظهير[2] لصغر سنهم جميعا .

٣ ـ الذكورة :

حينما اتضحت فضيلة الجهاد والمجاهدين تطلعت أنظار النساء حباً إلى تلك الفضيلة ، ورنت أفئدتهم شوقا لثواب الله العظيم ، متمنيات أن يشاطرن الرجال العطاء الكبير والأجر الكثير ، وسارعن يستفسرن عن نصيب المرأة من الجهاد ، فها هي ذي السيدة عائشة رضي الله عنها تسأل الرسولﷺ أن تجاهد : « يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ فقال لها رسول اللهﷺ : (لكن أفضل الجهاد حج مبرور)[3] .

ونص الحديث هو : إن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : (استأذنت النبيﷺ في الجهاد فقال : جهادكن الحج [4] وجاءت نسوة كثيرات غير السيدة عائشة يسألن عن جهاد المرأة على نحو ما روت عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين (عن النبيﷺ سأله نساؤه عن الجهاد فقال : نعم الجهاد الحج)[5] .

فدل هذا على أن الجهاد غير واجب على النساء ، قال ابن حجر العسقلاني : (وقوله « جهادكن الحج » لا يدل على أنه ليس لهن أن يتطوعن

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ / ٧٠ .
(٢) السيرة لابن هشام ٣ / ٧١ .
(٣) فتح الباري ٦ / ٤ .
(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦ / ٧٥ .
(٥) المصدر السابق .

بالجهاد ، وإنما يدل على أن الجهاد لم يكن عليهم واجبا لما فيه من مغايرة المطلوب منهن من السترومجانية الرجال ، فلذلك كان الحج أفضل لهن من الجهاد)[1] .

وقد تطوعت كثيرات من النسوة في الجهاد على عهد رسول الله ﷺ ، ففي غزوة أحد خرج عدد من النساء ، منهن أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية التي قاتلت للضرورة ، فضربت بالسيف ورمت بالنبل حتى أثخنتها الجراح وهي تدافع عن رسول الله ﷺ . والثابت أنها خرجت مع زوجها وابنيها ، كما حدثت عن نفسها ولترى ما يفعل الناس في الحرب فلما رأت رسول الله ﷺ قد كسرت رباعيته ، قاتلت دونه ، والقتال في هذه اللحظة يصبح فريضة عين على المسلم والمسلمة . قال ﷺ فيها : (ما التفت يميناً وشمالاً يوم أحد إلا وأنا أراها تقاتل دوني)[2] .

ومنهن أيضا أم سليط بنت عبيد بن زياد ، وعائشة بنت أبي بكر وأم سليم وفي الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه إشارة إلى ذلك حيث قال : (لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم[3] سوقهن تنقزان القرب .

وقال غيره : [4] تنقلان القرب ، متونهما ، ثم تفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملأنها ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم .

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه (أن أم سليط[5] كانت تزفر لنا القرب يوم أحد)[6]

---

(١) فتح الباري ٦ / ٧٦ بتصرف في العبارة .

(٢) فتح الباري ٦ / ٧٩ .

(٣) الخلاخيل ، وهذه كانت قبل الحجاب ، ويحتمل أنها كانت عن غير قصد العبارة للنظر . وتنقزان : تسرعان المشي كالهرولة .

(٤) رواية جعفر بن مهران عن عبد الوارث أخرجها الإسماعيلي فتح الباري ٦ / ٧١ .

(٥) ام سليط هي والدة أبي سعيد الخدري كان زوجها أبو سليط من بني النجار فولدت له سليطا وفاطمة فتح الباري ٦ / ٧٩ ، ٧ / ٣٦٦ .

(٦) تزفر : تخيط ـ فتح الباري ٦ / ٧٩ .

وفي حديث خالد بن ذكران أن الربيع بنت معوذ قالت : « كنا مع النبي ﷺ نسقي ونداوي الجرحى ونرد القتلى إلى المدينة »[1] .

وعلى هذا فإن مهمة المرأة في القتال مساعدة فعالة للجنود المقاتلين ومعاونتهم على أداء مهمتهم الشريفة .

قالت أم عطية الأنصارية (غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم ، فأصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى)[2]

وروى أنس بن مالك كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا ، فيسقين الماء ويداوين الجراح .[3]

وذكر إبن عباس رضي الله عنهما : بشأن النساء (. . . وقد كان يغزو بهن ، فيداوين الجرحى ، ويحذين من الغنيمة وأما بسهم فلم يضرب لهن)[4]

وفي غزوة خيبر خرجت نسوة مع المقاتلين ، وقلن لرسول الله ، خرجنا نغزل الشعر ، ونعين به في سبيل المرضى ، ومعنا دواء للجرحى ونناول السهام ونسقي السويق ، فقال قمن[5] وانصرف .

ويوم حنين وجد رسول الله ﷺ عند أم سليم خنجرا كان معها : فقال لها : ما هذا الخنجر ؟ فقالت : اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بعرت به بطنه . فجعل رسول الله ﷺ يضحك)[6] .

وعلى هذافللمرأة مهمة سامية في الجهاد ، ولكن هذه المهمة منحصرة في نطاق ضيق جداً ، وإنها لمهمة ملائمة لطبيعة المرأة الجسيمة والنفيسة ، وقد تسامت عظمة الاسلام حينما لم يأمرها بحمل السلاح ولا بمقاتلة الأعداء جنباً إلى جنب مع الرجال والشباب لأن هذا العمل يخرجها عن طبيعتها الرقيقة اللطيفة

---

(١) المصدر السابق .

(٢) صحيح مسلم ٣ / ١٤٤٧ .

(٣) صحيح مسلم ٣ / ١٤٤٣ .

(٤) يحذين : يعطين ـ والحذوة العطية ، مسلم ٣ / ١٤٤٧ ، ١٤٤٤ .

(٥) أبو داود ٢ / ٦٨ .

(٦) مسلم ٣ / ١٤٤٢ .

ويخرجها عن كونها امرأة محتشمة متسترة محتجبة ولعل هذا هو السر الذي من أجله وضع عن المرأة شهود الجمعة والجماعة . والعمل الذي يتناسب مع عواطفها ومع طبيعتها الأنثوية أن تقوم برعاية الجرحى وبمداواة المصابين لأن هذا العمل الجليل يحتاج إلى شيء من الرفق والعطف والمداراة والليونة والنعومة .

ويمكن للمرأة أن تقوم بمهمة خياطة ملابس الجند ، والمساعدة في الطهي وإعداد المؤنة للمقاتلين وكل هذا لا يخرجها عن طبيعتها الرقيقة الناعمة .

وأعود لأكرر الملاحظة التي ذكرتها في مطلع هذا البحث وهي أن الغرض الجهادي موضوع عن المرأة إذا كانت المعركة هجومية من المسلمين أما إذا كانت دفاعية فيتعين عليها القتال .

حكم الجهاد :

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ الله ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ وَقَاتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ الله الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوْا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ ﴾[2] .

وقال ﴿ وَقَاتِلُوْا الْمُشْرِكِيْنَ كَافَّةً ﴾[3] .

على ضوء هذه الآيات الكريمة أراد علماء الفقه أن يحددوا مسئولية الإنسان أمام الجهاد هل هي مسئولية واجبة على كل فرد أم أنها مسئولية الجماعة ، بمعنى آخر هل هي واجبة على كل فرد واجباً عينياً ، أمْ كفائياً إذا قام بها بعض أفراد الجماعة سقط الإثم عن الباقين ؟

وكانت دراستهم للقضية تدور ضمن دائرتين الأولى : الجهاد في عهد رسول الله ﷺ . الدائرة الثانية : الجهاد بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

---

(١) النساء/ ٩٥ .

(٢) البقرة/ ١٩٠ .

(٣) التوبة / ٣٦ .

الدائرة الأولى : في حال حياة رسول الله ﷺ :

يقول ابن حجر العسقلاني : « إن أول ما شرع الجهاد بعد الهجرة النبوية إلى المدينة اتفاقاً ، ثم بعد أن شرع هل كان فرض عين أو كفاية ؟ قولان مشهوران للعلماء وهما في مذهب الشافعي .

قال الماوردي : كان عيناً على المهاجرين دون غيرهم ، ويؤيده وجوب الهجرة قبل الفتح في حق كل من أسلم آلى المدينة لنصر الاسلام . وقال السهيلي : كان عيناً على الأنصار دون غيرهم ، ويؤيده مبايعتهم النبي ﷺ ليلة العقبة على أن يؤوا رسول الله ﷺ وينصروه . فيخرج من قولهما إنه كان عيناً على الطائفتين كفاية في حق غيرهم ومع ذلك فليس في حق الطائفتين على التعميم ، بل في حق الأنصار إذا طرق المدينة طارق وفي حق المهاجرين إذا أريد قتال أحد من الكفار ابتداء »[1]

ثم يقول : « والتحقيق أنه كان عيناً على من عينه النبي ﷺ في حقه ولو لم يخرج »[2]

وقد فهم الصحابة من قول الله تبارك وتعالى ﴿ انْفِرُوْا خِفَافاً وثِقالاً ﴾ العموم فلم يكونوا يتخلفون عن الغزو حتى مات ، منهم أبو أيوب الانصاري والمقداد بن الأسود ومصعب بن عمير وغيرهم كثير . . ومعنى قوله تعالى ﴿ خفافاً وثقالاً ﴾ متأهبين أو غير متأهبين نشاطاً أو غير نشاطاً وقيل رجالاً وركباناً .

الدائرة الثانية : بعد وفاة الرسول ﷺ :

يؤخذ في الاعتبار في هذه الحالة نوعية المعركة :

١ ـ فقد تكون دفاعية لرد العدوان .

٢ ـ وقد تكون اختيارية ابتداء .

ففي النوعية الأولى يكون الجهاد واجباً عيناً على الجميع رجالاً ونساءً شباباً وشيباً ، قادرين على حمل السلاح أو غير قادرين في المنشط والمكره في العسر

---

(١) و (٢) فتح الباري ٦/ ٣٧ .

واليسر ، في الشدة والرخاء ، لأن دفع العدو واجب على المسلمين جميعاً ممن اعتدى عليهم بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر ، لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّيْنِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾[1]

ولقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا مَالَكُمْ إِذَا قِيْلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيْلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾[2]

وفي النوعية الثانية : يكون الجهاد فرضاً كفائياً على القول المشهور عند السلف والخلف إلاّ ان تدعو الحاجة ، لأن جنس جهاد الكفار متعين على كل مسلم إما بيده وإما بلسانه وإما بماله وإما بقلبه[3] .

ولكن متى يتأدى فرض الكفاية : قال الجمهور يتأدى بفعله في السنة مرة وحجتهم في ذلك أن الجزية تجب بدلاً عنه ولا تجب في السنة أكثر من مرة اتفاقاً فليكن بدلها كذلك . . وقيل انه يجب كلما أمكن ، يقول ابن حجر وهذا المذهب قوي[4]

أدلة وجوب الجهاد :

(١) من الكتاب الكريم :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوْا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوْا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُوْنَ ﴾[5]

وقوله جل من قائل : ﴿ وَقَاتِلُوْا الْمُشْرِكِيْنَ كَافَّةً ﴾[6] . . وقوله : ﴿ وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوْا ﴾[7] وقوله سبحانه ﴿ انْفِرُوْا خِفَافاً وَثِقَالاً

---

(١) سورة الأنفال / ٧٢ .
(٢) سورة التوبة / ٣٨ ـ ٣٩ .
(٣) فتح الباري ٦ / ٣٨
(٤) المصدر السابق
(٥) سورة البقرة / ٢١٦
(٦) سورة التوبة ٣٦
(٧) سورة البقرة / ١٩٠

وَجَاهِدُوْا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴾[1]

(٢) من السنة النبوية :

لقد وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ تفيد وجوب الجهاد . . من ذلك :

قول الرسول ﷺ : (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيه وإذا استنفرتم فانفروا)[2]

وحدث الصحابة أنهم بايعوا رسول الله ﷺ (على الإسلام والجهاد)[3] .

(٣) الإجماع :

أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على وجوب الجهاد وطبقوا ذلك عملياً فقاتلوا في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، والجهاد سنة باقية إلى يوم القيامة لا يبطلها عدل عادل ولا جور ظالم . .

---

(١) سورة التوبة ٤١

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦ / ٣٨

(٣) فتح الباري / ١١٧

الإعـداد لِلجهـاد

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَعِدُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُوْنَ بِهِ عَدوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[1] . .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَ فِيْ سَبِيْلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوْصٌ ﴾[2] . .

وكان الرسول ﷺ يستعرض الجنود قبل دخول المعركة . . وقال علي بن أبي طالب لجنده يوم موقعة صفين :

« سووا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدموا الدارع وأخروا الحاسر ، وعضوا على الأضراس فإنه أنبىٰ للسيوف عن الهام ، والتووا على أطراف الرماح أصون للأسنة ، وغضوا الابصار فانه أربط للجأش ، وأسكن للقلوب ، واخفتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولىٰ بالوقار ، وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم ، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر »[3]

وعلى هذا فإن للإعداد أثراً كبيراً في رفع معنويات الجيش وفي إنزال السكينة في نفوسهم وقلوبهم ، بل إن للإعداد أثره الذي لا يخفىٰ في توجيه دفة الحرب وفي تحديد النتائج . .

وللإعداد محيطان ، محيط تربوي ، روحي ونفسي . .

---

(١) سورة الأنفال / ٦٠ .

(٢) سورة الصف / ٤ .

(٣) فن المعركة ص / ١٥ .

ومحيط مادي (تكتيكي) وسلاحي . .

الإعداد الروحي :

مهما ارتقى السلاح وتفننت مظاهره وقوي أثره واشتدت هيبته ، فإن الإنسان الذي يصنع هذا السلاح والذي يوجه هذا الخطر والذي يدفع هذه القوة ، له المكانة الكبرى بل والأولىٰ في المعركة ، ذلك لأن فيه القوة المعنوية الصامدة ، وفيه العقل الواعي المخطط ، المنظم ، وفيه اليد الفاعلة الموجهة المنفذة ، فإذا كان هذا الإنسان الذي يحمل السلاح يعيش في جهل فكري وروحي وفي تلبد ذهني وفي ضلال تربوي فماذا يفعل السلاح ، وإذا كان الإنسان جبانا يهاب المنايا فما الذي تفيده القوة التي يمتلكها ، وإذا كان لا يعلم كيف يستعمل السلاح فماذا تغنيه الاسلحة . . ومن هنا نشأت أهمية إعداد الجندي . . الإنسان الذي يحمل السلاح بيده ، ويخطط للمعركة بذهنه ، ويثبت في ساحة الشرف إيماناً بما عند الله من جزاء وثوابٍ . .

وقد كان رسول الله ﷺ يهتم بالمقاتلين ويتولاهم بالإعداد المستمر والتهيئة الكاملة لخوض معارك الجهاد في كل حين ومهما كانت الظروف عصيبة شديدة . .

وللإعداد الروحي مظاهر أهمها غرس الفضائل النفسية كالشجاعة والإقدام والتقوى وطاعة القائد . .

١ ـ الشجاعة والإقدام :

لقد كان رسول الله ﷺ يربي رجاله على الشجاعة والإقدام وكان هو ﷺ أشجع الناس وأجود الناس ، يروي أنس رضي الله عنه قال : (كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس . ولقد فزع أهل المدينة فكان النبي ﷺ أسبقهم على فرس وقال وجدناه بحرا)[1]

وروي أنَّ عمرو بن ميمون الأودي قال : (كان سعد يعلم بنيه[2] هؤلاء

---

(١) البحر : واسع الجري فتح الباري ٦ / ٣٥

(٢) ذكر محمد بن سعد في الطبقات أولاد سعد فذكر من الذكور أربعة عشر نفسا ، ومن الإناث سبع عشرة (فتح الباري ٦ / ٣٦) .

الكلمات كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة ويقول : إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ منهن دبر الصلاة : اللهم إني أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر)[1]

وروي أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (كان النبي ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل[2] والجبن والهرم وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من عذاب القبر) .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلاَ تَهِنُوْا وَلاَ تَحْزَنُوْا وَأَنْتُم الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾[3] . .

وقال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِذَا لَقِيْتُمْ فِئَة فَاثْبُتُوْا وَاذْكُرُوْا الله كَثِيْرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴾[4] .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِذَا لَقِيْتُم الَّذِيْنَ كَفَرُوْا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوْهُمُ الأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَة فَقَدْ بَآءَ بِغَضَب مِنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيْرُ ﴾[5] .

وفي أول عهد الإسلام كان لزاما على المسلم أن يثبت أمام عشرة من الأعداء ، ثم خفف الحكم فأصبح على المسلم أن يثبت أمام اثنين ، وعلى هذا المعنى يدل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُوْنَ صَابِرُوْنَ يَغْلِبُوْا مِائَتَيْنِ ، وإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائة يَغْلِبُوْا أَلْفًا مِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُوْنَ ﴾[6] ﴿ الآنَ خَفَّفَ الله عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيْكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائة صَابِرَة يَغْلِبُوْا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْف يَغْلِبُوْا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصَّابِرِيْنَ ﴾[7]

وقال سبحانه ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوْا الْجَنَّة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الَّذِيْنَ جَاهَدُوْا

---

(١) المصدر السابق . .

(٢) الفرق بين العجز والكسل : ان الكسل ترك الشيء مع القدرة على الأخذ في عمله ، والعجز عدم القدرة .

(٣) آل عمران / ١٣٩ .

(٤) سورة الأنفال / ٤٥ .

(٥) سورة الأنفال / ١٥ - ١٦ .

(٦، ٧) سورة الأنفال ٦٥ - ٦٦ .

مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِيْنَ ﴾[1]

وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه باباً سماه (باب البيعة في الحرب أن لا يفروا وقال بعضهم : على الموت) وذكر فيه عدداً من الأحاديث التي تبين أن النبي ﷺ أخذ البيعة من الصحابة على الثبات في الجهاد ، منها حديث نافع عن ابن عمر قال:(رجعنا من العام المقبل ، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها . كانت رحمة من الله ، فسألنا نافعا على أي شيء بايعهم ، على الموت ؟ قال : لا بل بايعهم على الصبر)[2]

وحديث سلمة رضي الله عنه قال : (بايعت النبي ﷺ ثم عدلت إلى ظل شجرة ، فلما خف الناس قال : يا ابن الأكوع ألا تبايع ؟ قال قلت : قد بايعت يا رسول الله ، قال : وأيضا . فبايعته الثانية ، فقلت له : يا أبا مسلم ، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال على الموت)[3]

وحديث شعبة عن حميد قال سمعت أنسا رضي الله عنه يقول : كان الأنصار يوم الخندق تقول :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما حيينا أبدا

فأجابهم النبي ﷺ فقال : (اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة فأكرم الانصار والمهاجرة)[4]

وكان الخلفاء الراشدون يعقدون الألوية للأمراء ويوصونهم بالصبر والثبات ولزوم الحق والشجاعة . وها هو ذا عمر بن الخطاب يوصي القادة وهو يعقد اللواء :

« بسم الله ، وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند

---

(١) سورة آل عمران / ١٤٢ .

(٢) فتح الباري بصحيح البخاري ٦ / ١١٧

(٣) المصدر السابق

(٤) فتح الباري ٦ / ١١٧

الظهور ، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً »[1] .

وكان للجيش الإسلامي نداءات خاصة ، يصدرها القادة للجند ، فكانوا إذا تهيئوا للقتال نادى القادة : (النفير ، النفير) وهي علامة الاستعداد للهجوم . وإذا أرادوا ركوب الخيل نادوا (الخيل . . الخيل) وإذا أرادوا أن يترجلوا نادوا (الأرض الأرض) .

والنداء الغالب الذي يبعث في النفس الحماس والإقدام هو نداء (الله أكبر) (الله اكبر) وكان الزبير بن العوام يقول وهو مقدم على القتال (إني أهب نفسي لله وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين)[2]

وقال سعد بن أبي وقاص لرجاله :

(إذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع نعالكم ، فإذا كبرت الثانية فتهيئوا ، فإذا كبرت الثالثة فشدوا النواجز على الأضراس واحملوا)[3]

٢ ـ التقوى :

كانت التقوى طابعا مميزاً للجيش الإسلامي ولا غرو ففيها تسمو النفس وترتفع عن الصغائر وتتعالى عن المطالب القريبة ، وبها تزداد العزيمة وتقوى الشكيمة وتشتد الإرادة ، وتلتهب الحماسة . وهي الطريق الممهد للسعادة القلبية ، والرباط المتين بين الجندي في ساحة الشرف وبين الله رب العباد الذي بيده النصر يهبه لمن يشاء ، ولا يضيع أجر المحسنين .

وكانﷺ (إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً)[4] .

وقد بعث أبو بكر رضي الله تعالى عنه الى خالد بن الوليد سيف الله المسلول على الأعداء رسالة توصية يقول فيها :

---

(١) فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦

(٣) نفس المصدر ص ٢٧ .

(٤) انظر صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ٣ / ١٣٥٧ .

« يا خالد عليك بتقوى الله وإيثاره على من سواه ، والجهاد في سبيله والرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ أهل السابقة من المهاجرين والأنصار ، فشاورهم فيما نزل بك ، ثم لا تخالفهم »[1] .

ولعل أوضح ما يصور حرص المسلمين على نقاوة الجيش وطهارته ، وإيمانهم بأن الصلة وثيقة بين تقوى الله والنصر على الأعداء ، رسالة ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص . . جاء فيها (أما بعد يا سعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم يكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله ، وأنتم في سبيل الله ، وأسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه العون على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم .

وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم سيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينقص قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع . . وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه »[2]

وللتقوى مظاهر ، أهمها : الصلاة ، والتوجه إلى الله بالدعاء .

(أ) ـ الصلاة في الحرب :

إن من الأسباب النفسية التي تؤثر في الدفع نحو النصر اللجوء إلى الله بالصلاة والاستعانة بالصبر فالصلاة راحة المؤمن وراحة باله ، بها يجد الأنس

---

(١) فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية للأستاذ محمد فرج ص ٢٩ .

(٢) فن المعركة ، من سلسلة البحوث الإسلامية ص ٣٣ .

واللذة الروحية التي تفوق كل لذة وكل أنس ، وبواسطتها يستمد العون من الله تبارك وتعالى القائل: ﴿ وَاسْتَعِينُوْا بالصَّبْرِ وَالصَّلاة وَإِنَّها لَكَبِيْرَة إلاَّ عَلَىٰ الْخَاشِعِيْنَ . الَّذِيْنَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوْا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاْجِعُوْنَ ﴾[1]

والصلاة في الحرب اسمها صلاة الخوف **ولها صفتان** .

الصفة الأولى في حالة اشتداد الخوف وازدياد الوطأة على المسلمين بحيث لا يتمكنون من أدائها على صفتها العادية جماعة ، فيصلونها كيفما كانوا وحيثما كانوا متجهين أو غير متجهين على الراحلة أو مترجلين قائمين أو قاعدين بالجسم أو بالطرف .

والصفة الثانية في حالة المرابطة ،وتؤدى جماعة على النحو الآتي :

يقسم المقاتلون إلى قسمين ، قسم يبقى مواجها للعدو ، وقسم يصلي مع الإمام نصف الصلاة الأول ، فإذا كانت الصلاة ركعتين يبقى الإمام قائماً إثر الركعة الاولى ويتم الذين صلوا معه لأنفسهم الركعة الثانية ثم ينصرفون ليحلوا محل إخوانهم في مواجهة العدو وتجيء الطائفة الأخرى فيصلي بهم الإمام الركعة الباقية ، ثم يثبت في مكانه وتتم هذه الطائفة الركعة الثانية بحيث يسلم بهم الإمام .

أما إذا كانت الصلاة ثلاثية أو رباعية فالفاصل بين الطائفة الأولى والثانية يكون عند التشهد .

قال الله تعالى : ﴿ وإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاة فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهم مَعَكَ وَلْيَاخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوْا فَلْيَكُونُوْا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْت طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوْا فَلْيُصَلُّوْا مَعَكَ وَلْيَاْخُذُوْا حِذْرَهُم وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَوْ تَغْفُلُوْنَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيْلُوْنَ عَلَيكُمْ مَيْلَة وَاْحِدَة ، وَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوْا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوْا حِذْرَكُمْ إِنَّ الله أَعَدَّ لِلكَافِرِيْنَ عَذَاْبَاً مُهِيْناً ، فَإِذَا قَضَيْتُم الصَّلاة فَاذْكُرُوْا الله قِيَاْمَاً وَقُعُوْدَاً وَعَلَىٰ جُنُوْبِكُمْ

---

(١) سورة البقرة / ٤٥-٤٦

فَإِذا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاة إِنَّ الصَّلاة كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً ﴾ [1]

(ب) التوجه إلى الله تعالى والإكثار من الدعاء :

ومن آداب المؤمنين في الحرب كثرة توجههم إلى الله تعالى ، فقد كان رسول الله ﷺ يكثر الدعاء ويقول : (اللهم أنت عضدي ونصيري ، بك أجول وبك أصول وبك أقاتل)[2] .

وفي وسط المعركة يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء طالبا النصر والعون : (اللهم منزل الكتاب مجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم)[3]

وإذا رجع من المعركة يقول : (الله أكبر (ثلاثا) آيبون إن شاء الله تائبون عابدون حامدون لربنا ساجدون ، صدق الله وعده ونصر عبد وهزم الأحزاب وحده)[4] .

وقد اعتاد بعض الصحابة أن يقصدوا المسجد إثر الاياب من الجهاد قبل الدخول إلى بيوتهم حيث يصلون ركعتين[5] شكرا لله تبارك وتعالى على ما ولاهم من نعمة الجهاد واتباعاً لسنة رسول الله ﷺ حيث كان يصلي في المسجد ركعتين إثر قدومه من السفر[6] .

٣ ـ توطيد العلاقة بين القائد والجنود :

لقد حرص الإسلام على وجود صلة دائمة بين القائد وأفراد الجيش ، وهذه الصلة تقوم أساساً على الاحترام المتبادل والتقدير . ومن أهم مسؤوليات القائد المحافظة على سلامة الجند ، وألا يُحَمِّلَهُمْ من الأمر ما ينوء به كاهلهم وألا يكلفهم ما لا يطيقون ، وألا يجعل بينه وبينهم حاجزاً بل ينبغي أن يتصل بهم ويتقرب إليهم ، ويأخذ رأيهم في دراسة الخطط الحربية وأن يتصرف بحكمة في

---

(١) النساء الاية ١٠٢ ـ ١٠٣

(٢) سنن لبي داود ٢ / ٤٠ .

(٣) فتح الباري ٦ / ١٥٦ باب لا تمنوا لقاء العدو ، صحيح مسلم ٣ / ١٣٦٢ .

(٤) فتح الباري ٦ / ١٩٢ .

(٥) طبقات ابن سعد ٢ / ١٩٢ ، فتح الباري ٦ / ١٩٢ .

(٦) فتح الباري ٦ / ١٩٢ .

كل الأمور التي تتصل بهم . . وهو بهذا الفعل يحوز على ثقتهم فيلتزم الجنود بقراراته ، ويندفعون وراءه وهم مطمئنون إلى حكمته وقدرته .

والجنود ملزمون بالولاء لقائدهم فيستجيبون له ويطيعونه ، ويعملون وفق رأيه ، وينفذون أوامره كاملة لا يخالفونه ولا ينشقون عنه وهم بهذا الولاء يكونون موضع ثقته [١] .

وطاعة الجنود للقائد مبدأ عسكري أساسي ، به ينتظم مسار المعركة ، وعليه تتوقف النتائج الهامة والحاسمة في تحديد دلائل النصر . .

ولهذا فقد أشار الرسول ﷺ في أحاديثه إلى التزام السمع والطاعة . فقال ﷺ :

(السمع والطاعة حق ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[٢]

وقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام : (من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله . ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني . وإنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به فان أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجراً ، وإن قال بغيره فإن عليه منه)[٣] ولقد جاء في بيعة الانصار ليلة العقبة (على السمع والطاعة في اليسر والعسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول الحق أينما كنا . لا نخاف في الله لومة لائم)[٤] . وقال عليه الصلاة والسلام (من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له)[٥]

وقد تعلم المسلمون من معركة أحد درسا لا ينسى ، لقد أدركوا تماماً أن ميزان المعركة يختل اختلالا كاملاً إذا تهاونوا في تنفيذ أمر القائد ، أو شغلهم

---

(١) فن المعركة ص ٨٦ .
(٢) فتح الباري ٦ / ١١٥
(٣) فتح الباري ٦ / ١١٦
(٤) صحيح مسلم ٣ / ١٤٧٠
(٥) صحيح مسلم ٣ / ١٤٧٨ .

شاغل عن التنفيذ الحرفي لمطالب القيادة ، فقد ذاقوا مرارة الهزيمة بسبب مخالفتهم لأوامر الرسول ﷺ ، ولم تكن تلك المخالفة متعمدة ، كلا وإنما تسرّعوا في تقدير النتيجة ، وقطاف الثمرة قبل أوان نضجها ، حيث صف الرماة على جبل وأمرُ رسول الله ﷺ عليهم عبدالله بن جبير وأصدر لهم أمره : (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل اليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم ، وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل اليكم)[1] .

وقاتل المسلمون بحماسة وشجاعة وبأس وإقدام حتى إذا ما استبان انهزام المشركين من ميدان القتال تاركين المتاع والغنائم نزل الرماة عن أماكنهم ظانين أن الهزيمة القاضية قد اجتاحت صفوف المشركين ، ولن تقوم لهم بعد الان قائمة وبهذا النزول ترك الرماة أماكنهم خالية ، بينما ظهور المسلمين غير محاطة بقوة عسكرية والثغور مفتوحة قريبة المنال سهلة العبور امام العدو المتربص

وكان لخسارة المسلمين في هذه المعركة أثر كبير في نفوسهم ودرس بالغ في ضمائرهم حيث غرست فيهم وجوب الالتزام بأوامر القائد وتنفيذها بحذافيرها .

ولقد تلقى خالد بن الوليد رضي الله عنه نبأ عزله عن قيادة الجيش من الخليفة عمر ـ نضر الله وجهه ـ بروح إسلامية عالية وايمان عميق . كان ذلك في معركة اليرموك ، وكان القتال على أشده ، فلم يشأ أن يعلن هذا النبأ على الملأ بل صبر حتى انتصر المسلمون ، ثم دعا أبا عبيدة ابن الجراح وسلمه القيادة تنفيذا لأمر الخليفة ، ثم قال لحامل البريد الذي جاءه بأمر العزل :

« بلغ أمير المؤمنين أن من حقه أن يعزلني عن القيادة ، ولكنه لا يملك أن يجردني من سيفي فسأظل حاملا هذا السيف في خدمة أمتي »[2]

وعاش خالد جنديا بسيطا تحت إمرة أبي عبيدة يتلقى منه الأوامر وينفذها . . وحاول بعض الذين يثيرون الخصومات في صفوف الأمة أن يثيروا خالدا حتى يمتنع عن الامتثال لأمر الخليفة ، ولكن إيمانه كان أكبر من أن يجعله يواجه الخليفة في حق يملكه ، وأن يخالفه في وقت يواجه فيه المسلمون

---

(١) فتح الباري ٦ / ١٦٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٢ / ٣٧

أعداءهم . وبقي خالد جندياً توجهه قوة الايمان التي تسمو بصاحبها إلى آفاق علوية لا يحسب فيها حساباً للمناصب ولا للاعتبارات الدنيوية ولا يعرف فيها الغل ولا الضغينة إنه الإيمان وإنه الاسلام الخالد الذي لا يزول . .

٤ ـ التوكل على الله والثقة بالنفس :

يأتي في مقدمة العوامل التي يترتب عليها نجاح المعركة (التوكل على الله والثقة بالنفس) ولذلك حرص الاسلام الحرص كله على غرس هذا المبدأ في نفوس الجنود .

والإنسان المتوكل على الله تعالى الواثق بنفسه يملك طاقة روحية لا نفاذ لها ، يستطيع أن يوجهها إلى نصرة الحق والدفاع عنه ، وهي دون شك أمضى من الأسلحة المادية وهي الضمان الأكيد لنيل النصر ، ولذلك فإن الإعداد الروحي في الاسلام يسير جنباً إلى جنب مع الإعداد المادي .

والمسلمون لم يخوضوا معركة ولم يواجهوا أعداء إلا من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وكم لاقوا في سبيل ذلك من مشقات وكم قامت في طريقهم من عقبات فلم يلينوا ولم تنفذ طاقتهم الروحية ولم يفقدوا الثقة بالنفس .

قال الله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ رِجَالٌ صَدَقُوْا مَا عَاهَدُوْا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوْا تَبْدِيْلاً ﴾[1]

وقال جل من قائل : ﴿ وَلاَ تَهِنُوْا وَلاَ تَحْزَنُوْا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾[2]

وقال عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اصْبِرُوْا وَصَابِرُوْا وَرَابِطُوْا وَاتَّقُوْا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴾[3] . .

وتحدثنا كتب السيرة أن الرسول ﷺ في غزوة بدر استقبل القبلة واتجه بكل قواه النفسية والروحية إلى الله العلي الأعلى ، وجعل ينشده ما وعده وأخذ يردد :

---

(١) من سورة الأحزاب الآية / ٢٣ .
(٢) من سورة آل عمران الآية / ١٣٩ .
(٣) من سورة آل عمران الآية / ٢٠٠ .

(اللهم هذه قريش قد أتت بخيلاءها وفخرها تجادل وتكذب رسولك . . اللهم فنصرك الذي وعدتني) .

إن الاتجاه إلى الله تبارك وتعالى ، والاعتماد عليه وحده ، أمر عرفه كل مسلم مقاتل ، وأدركه كل مجاهد في سبيل الله لأنه آمن بوعد الله بالنصر والتأييد ، ولهذا فقد كان يدخل المعركة معتمداً على الله وحده مصدقاً بقول رسول الله ﷺ : (والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة)[1] .

لقد كان المسلمون مؤمنين بأن الله سبحانه سينقذ الإنسانية مما تعانيه من ضيق وعذاب وحرمان في دنياها ومن قلق واضطراب وتيه في أفكارها بسبب بعدها عن هداية الله وبسبب تنكرها للقيم الرفيعة والأخلاق القويمة ، لهذا كله كان المسلمون يؤمنون بأن لله جلت عظمته إرادة قوية متجهة لإنقاذ البشرية مما هي عليه ، وذلك بإعلاء كلمة الحق والدين وبنصر الإسلام والمسلمين ، وبتأييد المجاهدين في سبيله ، العاملين على رفع راية التوحيد ولهذه المعاني كلها جاهد المسلمون جهاد الأبطال المستهينين في نعيم الدنيا وملذاتها ، وفي الموت ووطأته ، المقبلين على موطن القتل والاستشهاد . . وبهذه الروح العالية والنفس السامية والآمال البعيدة والمطامح البعيدة استطاع المسلمون بعون الله وتوفيقه أن ينتصروا في المواقع ويوم حنين إذ هزموا الأحزاب المتآزرة ضد الحق ، وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

وقد ملأ مبدأ التوكل على الله تبارك وتعالى والثقة بالعزة والتوفيق نفوس قادة المسلمين أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وطارق بن زياد ، ففتحوا البلدان ودانت لهم الأمصار وحققوا خلافة الله في أرضه وأعلوا كلمة التوحيد فوق الديار ، وقال خالد يوم قتال الفرس : (اللهم إن لك عليّ إن منحتنا

---

(١) فتح الباري ٧ / ٢٨٩ واللفظ لابن اسحاق .

أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قَدِرْنا عليهم) .

وقال عبادة بن الصامت حينما لقي المقوقس : (ما من رجل إلا ويدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا أهله وولده وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده وإنما همنا ما أمامنا) هذه هي أهم الجوانب المعنوية التي يعنى بها في تربية جنود المسلمين شجاعة واقداماً ، تقوىٰ واحكاماً ، صلة بالله تبارك وتعالى وذلك بإداء الواجبات والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه ، والاعتماد عليه واللجوء اليه والتضرع اليه والثقة بالنفس وطاعة القائد وحسن الصلة بين القادة وبين الحاكم العام للمسلمين . .

وبهذه التربية تصفو النفوس وتزكو الخصال ، وتتحمل الشدائد ويترفع عن الاهواء والشهوات . . ومن خاف الله خافه الناس ومن ابتغى إعلاء كلمة الله في الأرض فتح الله له كنوز الدنيا والآخرة وأيده بنصره وتوفيقه وعونه .

الإعداد المادي :

كما أن للإعداد الروحي أهمية كبرى وأثراً بالغاً في توجيه دفة المعركة وفي تحديد معالم النصر كذلك فإن للإعداد المادي أهمية عظمى تساوي أهمية الإعداد الروحي وتوازيها وتسير معها جنبا إلى جنب في كل ميدان للفوز بنصر الله وتأييده .

وللإعداد المادي جوانب كثيرة ، ومجالات مختلفة أشير إلى أهمها فيما يأتي :

(١) تربية الأجسام :

لقد حرص الإسلام الحرص كله على تربية أجسام المسلمين بصورة عامة ، وأجسام الجنود بصورة خاصة لما لها من أثر على تصلب العود وقوة الجسم والثقة بالنفس والقدرة على التغلب على الاعداء . .

قال رسول الله ﷺ :(المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن

الضعيف)[1] . .

وقد شجع الرسول ﷺ والخلفاء من بعده كل عمل ينشط الجسم ويحفظ القوة البدنية ويساعد على الحركة والمرونة والسرعة في العمل . .

كما أنه ﷺ قد حذر من التعرض للأمراض السارية الفتاكة وأمر بالتداوي من كل مرض يعرض للإنسان بعامة . .

روى الإمام البخاري أن رسول الله ﷺ قال :

(فر من المجذوم فرارك من الأسد) . .

وروى مسلم وأحمد وغيرهما أنّ النبي ﷺ قال : (لكل داء دواء فإذا أصاب الدواء الداء برأ بإذن الله عز وجل) . .

وفي مسند أحمد وفي سنن النسائي وغيرهما عن أسامة بن شريك قال :(كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب ، فقالوا : يا رسول الله أنتداوى ؟ فقال : نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء) . .

وروى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قلت : يارسول الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً . فقال عليه الصلاة والسلام هي من قدر الله) . .

وكان الرسول ﷺ يأمر بالرجولة والجد ، والابتعاد عن كل ما يورث الترف والترخي والميوعة . .

روى الطبراني بإسناد جيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : (كل شجاعة ليس من ذكر الله فهو لهو أو سهو إلا أربع خصال : مشي الرجل بين الفرضين (أي الرمي) وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، وتعليمه السباحة)

كل هذه الأحاديث وغيرها كثير تأمر الإنسان أن يعتاد على حياة الجد والرجولة وأن يهتم بتربية جسمه التربية المتينة القوية كي يصبح جنديا من جنود المسلمين قوياً في ساعده قويا في ممشاه جدّياً في مسلكه ، جديا في معاملته يهيب

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة

العدو ويخيفه . .

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

إن السلاح لا يعمل إلا في يدي بطل ، والبطل لا يصنعه إلا الإيمان . . وإن الذي يتقدم ليجود بنفسه يجب أن يكون مستعداً جسميا لتحمل المشاق ومكابدة المتاعب ، وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحث الجنود على تحمل كل مشقة لأداء الحرب ، وأن يعدوا أنفسهم لاحتمال المصاعب ، يروي عبد الله بن عمر عن أبيه الفاروق أنه كان يرسل الى الولاة بالشام (آن أنظر من قبلك فمرهم فلْينتعلوا ولْيحتفوا) قال العلماء في بيان معنى هذا الخبر يستحسن للجند أنْ يمشوا أحياناًبغير نعل وأحياناً في النعل ليتعودوا ذلك كله وهذا تنبيه إلى الجند ألاّ يجنحوا الى الترف والنعيم ، فإن الجندية والتنعيم نقيضان لا يجتمعان . . وكثيراً ما يضطر الجند إلى أداء أشق الأعمال وأعنفها ، فيجب أن يخشوشنوا ليكونوا على استعداد كامل للمتاعب إذا نزلت ، وقد يقضي أحدهم ليالي وأياماً في الفيافي والقفار ولا يجد ما ينتعله فيجب أن يكون قادراً على المشي ، وأن الترف يؤدي إلى استرخاء النفوس وتعودها على البطالة والكسل والجبن والخوف من اقتحام الشدائد ومواجهة المعارك ولذلك كان الخلفاء رضي الله عنهم يوصون الجند بالخشونة في المأكل والملبس والبعد عن كل عمل يؤدي إلى الترف أو إلى استرخاء الجسم . .

يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه :(إنكم ستظهرون على كنوز كسرى وقيصر ، وإياكم والأشر[1] ، ورب الكعبةلتأشرن)والأشر نوع من الطغيان قال الله تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . .)

٢ ـ اختيار القيادة الواعية وتطبيق مبدأ الشورى :

يجب أن تسلم قيادة الجند إلى أقواهم عزيمة وأمضاهم شجاعة وأصلبهم عوداً وأنضجهم فكراً وأكفأهم إدارة ، لأن نجاح المعركة رهن بالإدارة الحازمة الواعية التي تتقدم الجند وتحارب معهم وتحرص على سلامتهم ، وقد كان رسول

---

(١) الأشر نوع من الفرح مصحوب باستعلاء وتنعيم

الله ﷺ قائداً أعلى لجيش المسلمين لم يتخلف عنهم في معركة ذات بال بل كان يتقدم الصفوف دائماً ، حتى قال الصحابة فيه كان أشجعنا في الحروب والمعارك وإذا أخافنا شيء أو اشتد الوطيس احتمينا برسول الله ﷺ قال الإمام علي رضي الله عنه (لما كان يوم بدر ، وحضر البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، وكان من أشد الناس بأسا ، وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه)[1]

وكان رسول الله ﷺ يستعرض بنفسه جيوش المسلمين ويسوّي صفوفهم [2] ويعلمهم النظام ، ويأمرهم بالتزام السكينة والهدوء ، والاستعداد الكامل لتلقي أوامر القيادة ، ويضع أمامهم الخطة الحربية ويستشيرهم في كل تنظيم وتخطيط . .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يستشير أهل الحل والعقد في تنظيم الصفوف وفي المكان الذي يصلح لمواجهة الاعداء وقد أشار الحباب بن المنذر على رسول الله ﷺ في غزوة بدر أن ينزل أدنى ماء من القوم وأن يغور المسلمون ويبنون حوضاً فيملأونه ماء ويشربون منه ، فنزل رسول الله ﷺ عند رأيه .[3]

وفي غزوة أحد استشار رسول الله ﷺ المقاتلين من أصحابه في المكان الأصلح لمواجهة العدو ، أيخرج بالمسلمين إلى خارج المدينة ، أم يبقى معهم داخلها ويدافعون عنها ولا يتكلفون مشقة السفر ، وإذا هاجمهم العدو وجدهم قد مكنوا أنفسهم من منازلهم فيكون هذا الأمر أعون لهم على المواجهة ؟

وعمل الرسول ﷺ برأيهم الأول وهو الخروج إلى جبل أحد على مشارف المدينة المنورة فركب فرسه وتنكب القوس وأخذ قناة بيده وحرج في مقدمتهم . .

وفي معركة الخندق أخذ رسول الله ﷺ برأي سلمان الفارسي في حفر خندق حول المدينة المنورة وكان ﷺ يعمل بيده الشريفة المباركة ليزكي الحماس في نفوس الجند ، فيشاركون بهذا العمل الدفاعي . .

---

(١) رواه الشيخان

(٢) طبقات ابن سعد ٢ / ٣٩ .

(٣) السيرة لابن هشام ص ٢ / ٩٥

وفي بدر استشار الرسول ﷺ صحبه لقتال قريش ، فقال أبو بكر وأحسن القول ، وقال عمر فأحسن ، ثم قام المقداد بن الاسود فقال : يا رسول الله امض لما أمرك به الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنوا إسرائيل لموسى عليه السلام (إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُوْنَ) ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . .

ثم قال سعد بن معاذ : فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضه معك وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً ، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .[2]

وكان ﷺ لا يميز نفسه بشيء عن جنوده ، ففي معركة بدر كان كل ثلاثة من المسلمين يتناوبون الركوب على بعير واحد[3] فكان إذا جاء دوره ترجَّل الرسول ﷺ قال له صاحباه : إركب حتى نمشي عنك فيقول ما أنتما بأقوى على المشي مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكما .[4]

ومع أن الرسول ﷺ كان القائد الأعلى للجيش ، فقد كان يختار قادة يحملون الألوية ويتقدمون الجنود ، ففي بدر اختار مصعب بن عمير وعلي بن أبي طالب ورجلاً من الأنصار ، وفي حرب بني قينقاع اختار حمزة بن عبد المطلب لحمل راية المسلمين . .

وفي أحد كان أسيد بن نضير يتقدم الأوس والحباب بن المنذر يتقدم الخزرج وعلي بن أبي طالب يتقدم المهاجرين ومصعب بن عمير من جماعة القادة الذين يحملون الألوية أيضا . .

وفي مؤته دفع رسول الله ﷺ الرايه لزيد بن حارثة قال أنس بن مالك (خطب

---

(١) هي مدينة على ساحل البحر الاحمر على مرحلتين من قنفذه جنوباً على جبل مرتفع فيها مسجدان وسوق ويسكنها بنو هلال

(٢) الكامل لابن الاثير ٢ / ٨٤

(٣) المرجع السابق

(٤) الإسلام والحرب ومصادره ص ٦٥ .

رسول الله ﷺ فقال أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها عبد الله بن رواحه فأصيب ثم أخذها خالد بن الوليد منه غيره أمره ففتح الله عليه وقال يسرني أو قال ما يسرهم أنهم عندنا)[1]

وكانوا جميعاً في قمة البطولة والفداء ، فقد أثبتوا شجاعة نادرة حيث قاوموا بثلاثة آلاف مقاتل مسلم ما يزيد عن مائتي ألف من جنود الأعداء كما كانوا جميعاً مثل الثبات والصمود والسيطرة على الموقف العصيب .

وكان قد ارتفع صوت يقول : يا قوم ترون قلة عددنا وكثرة أعدائنا فلنكتب لرسول الله ﷺ نخبره بالأمر فعسى أن يمدنا بالرجال ، أو يأمر بأمر ننفذه فأجابه عبد الله بن رواحة :

(يا قوم . . والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلاّ بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة . . فمضى الناس »[2] ويقاتل المؤمنون قتال الأشاوس الأبطال . . ويستشهد القادة الثلاثة وتتحقق نبؤة رسول الله ﷺ ، ويتولى القيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه . .

ويسير الخلفاء الراشدون على الخطة نفسها التي سنها رسول الله ﷺ في اختيار القادة . . وها هو ذا أبو بكر رضي الله تعالى عنه يوجه أسامة وجيشه إلى بلاد الشام ، ويخرج الخليفة لوداعه بعد توليه الخلافة مباشرة ويسير مع الجند على قدميه ، وأسامة راكب ، ويغلب الحياء أسامة إذ يرى خليفة رسول الله ﷺ وصاحبه والقائد الأعلى للمسلمين وصاحب الأمر والنهي يسير معهم إلى جنبه سيراً على قدميه ، فأراد أن ينزل وهو يقول : « يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن » . .

فقال له أبو بكر على مسمع من أفراد الجيش (والله لا تنزل ووالله لا أركب . . وما عليَّ أن أغبر قدميَّ في سبيل الله ساعة) . .

---

(١) فتح الباري ٦ / ١٨٠

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٧٥

وأيّ مثل رفيع في غاية السمو والكمال يقدمه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ للجند ؟ وقد كان أسامة بن زيد أصغر أفراد الجيش سناً ولكنه أمضاهم عزماً وأجرأهم قولاً ، وأحفظهم قرآنا ، وقد اختاره رسول الله من قبل أميراً على هذا الجيش فأمضاه أبو بكر . . وأراد أبو بكر بذلك التصرف أن يعلّم الجند الإذعان إلى أمر أسامة بن زيد والمسارعة في تنفيذ أمره وخطته .

وقال عمر بن الخطاب لأبي بكر الصديق : (إنَّ في سيف خالد رهقاً وحق عليه أن يقيده) ولكن أبا بكر يعرف أن خالدا يتميز بخصال تجعله موضع ثقة ورضا ، وأنه سيف من سيوف الله مسلول على الأعداء وأنه هو الذي يستطيع أن يواجه الفرس والروم ، ويحقق بإذن الله الانتصارات الرائعة حتى قال فيه (عقمت النساء أن يلدن مثل خالد والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد)[1] .

وسلك عمر بن الخطاب نهج رسول الله ﷺ وخليفته الأول في اختيار القيادة الواعية فسلم إمرة جيش الشام إلى أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، وأوصاه قائلاً : « لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تسترده لهم وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث إلا في كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في هلكة) .

٣ ـ وحدة الصف :

لقد وضع الإسلام نظاماً دقيقاً حاسماً للقتال ألا وهو (وحدة صف المسلمين) أثناء مواجهة الأعداء . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَ فِيْ سَبِيْلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوْصٌ ﴾ . .[2]

وقال رسول الهدى ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) . .

وكان النبي ﷺ يرتب بيده الشريفة الجنود صفوفاً ، وبهذا النظام الذي أوجده الإسلام واجه المسلمون أعداءهم من العرب ومن الفرس والروم .

---

(١) فن ادارة المعركة ص ٩٦ .

(٢) سورة الصف الآية / ٤ .

وكان ﷺ يسوّي الصفوف فإذا وجد رجلاً نابياً نبهه ، وفي بدر كان (سواد بن غزيه) خارجاً عن الصف فضربه في بطنه وأمره أن يلزم الصف . .

وقال رضي الله تعالى عنه لجنده (سووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر) . .

وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه يقسم جيوشه إلى مجموعات وقد حارب الروم بهذا النظام فجعل جيشه مؤلفاً من ميمنة وميسرة وقلب وأقام على القلب أبا عبيدة بن الجراح وعلى الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان وأقام على كل مجموعة بطلاً من أبطال المسلمين أمثال القعقاع وعكرمه وعياش بن غنم وعبد الرحمن بن خالد ، وكان أبو سفيان يسير بين المجموعات وهو يقول:(الله . . الله ، إنكم قادة العرب وأنصار الاسلام وأنهم زادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إنَّ هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك) . .

وهكذا أعد خالد بن الوليد المسلمين إعداداً نظامياً لم يسبق إليه واقتبس سعد بن أبي وقاص هذا النظام في القادسية سنة ١٤ هـ[1] . .

والإسلام دين قائم على التعاون وخدمة المسلمين بعضهم بعضاً . . قال الله تعالى ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ الله وَالَّذِيْنَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[2]

وإذا كان التعاون واجباً على المسلمين تجاه بعضهم بعضاً خارج المعارك والحروب فهو أوكد وألزم في القتال الذي يستوجب وحدة الكلمة ووحدة الخطة ووحدة النظام ووحدة الصف . ولذلك كان المسلمون في حروبهم مثالاً للانضباط والتعاون ، وبهذا النظام والإخلاص حققوا انتصارات يعجب لها التاريخ ويزهو بها فخراً .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٢) سورة الفتح الآية / ٢٩ .

٤ ـ التخطيط للحرب :

إن التخطيط للمعركة يعتبر ركناً أساسياً وهاماً لنجاح العمليات الحربية ، والتخطيط يتضمن معرفة قوات الطرفين عدة وعدداً ونوعية السلاح الذي سيستخدم ومدى التمرين عليها وطبيعة أرض المعركة والأجواء المحيطة بها والرأي العام العالمي وتحديد موقف الدول الأخرى من الطرفين . ومدى اقتناعهم بالهدف الذي يسعون لتحقيقه .

والتاريخ الإسلامي حافل بالخطط الحربية التي وضعت بدقة وإحكام منذ أن كان هناك قتال بين المسلمين وغيرهم . .

والخطة الناجحة هي التي لا ينفرد القائد بوضعها ، لأن رأي الفرد قد يخطىء وأمله قد يخيب . ورأي الجماعة أقرب للصواب . ولهذا فإن الرسول ﷺ كان حريصاً على وضع الخطة أساساً على مبدأ الشورى ، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده .

وكان الرسول ﷺ يتحرى أخبار الأعداء قبل الإقدام على المعركة ، ففي غزوة بدر أرسل (بسيس بن عمرو) (وعدي بن أبي الزغباء) يستطلعان أخبار قريش ، وقد تمكنت جماعة من المسلمين أثناء التماسها أخبار قريش من العثور على رجلين من رجال العدوّ فأحضروهما للرسول ﷺ ليتعرف عن طريقهما على أخبار قريش فسألهما عن عددهم ، فلم يجيبا فسألهما عن عدد ما يذبحون من شياه في اليوم ، فقالوا بين التسع والعشرة ، فقال القوم بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر وغيرهم[1]

فأقبل رسول الله ﷺ على أصحابه وهو يقول : هذه مكة ألقت اليكم أفلاذ كبدها . .

وفي غزوة الأحزاب الخطرة قال رسول الله ﷺ :(من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟) ثم بعث حذيفة بن اليمان ليتعرف ما حصل بالقوم ، وقال

---

(١) الكامل لابن الاثير ٢ / ٨٣ .

له : يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا)[1] .

وقد عقد البخاري باباً سماه (باب فضل الطليعة) وذكر فيه حديث جابر أنه قال : (قال النبيﷺ من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب قال الزبير أنا . . ثم قال : من يأتيني بخبر القوم ؟ قال الزبير أنا فقال النبيﷺ إن لكل نبي حوارياً وحواريّ الزبير)[2] .

وبعث الرسولﷺ بسعد بن معاذ بن النعمان سيد الأوس وسعد بن عباده سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحه إلى يهود بني قريظة حينما نكثت عهدها واستعدت لمظاهرة الأحزاب ، وقال لهم (انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحنا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس)[3] وحين تحقق الرسول ﷺ من غدرهم ، لم يخبر المسلمين حتى أتموا استعداداتهم حفاظا على روحهم المعنوية)

وقد نبه القرآن الكريم المؤمنين لأخذ الحيطة والحذر من الكافرين لئلا يعلموا شيئاً عن أسرار الحرب والخطط والتنظيمات الإسلامية ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا خُذُوْا حِذْرَكُمْ ﴾[4] . .

وكان الرسولﷺ يتخذ الحراسة المشددة على كتائب المسلمين كيلا يتسرب شيء من أخبار القتال إلى الأعداء ففي غزوة أحد استعمل خمسين رجلاً بقيادة محمد بن مسلمة يطوفون بالعسكر ليلاً[5] . .

وقد نهى الله تبارك وتعالى المسلمين عن اتخاذ الأعداء أولياء من دون المؤمنين وإطلاعهم على أسرار الحروب ، قال تعالى : ﴿ يأيها الَّذِيْنَ آمَنُوْا لا

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٤٣ .

(٢) فتح الباري ٦ / ٥٢

(٣) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٣٧ .

(٤) النساء / ٧١ .

(٥) الطبقات لابن سعد ٢ / ٩٣ .

تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [1]

وحين يقبض على الجاسوس يجب قتله بعد أن يستخلص منه المزيد من أخبار العدو . روى مسلم وأبو داود أن رجلاً على جمل قوي قد أقبل على رسول الله ﷺ أثناء غزوه لهوازن ، يتجسس ثم انفلت كالريح فقال الرسول ﷺ : (اطلبوه فاقتلوه ، قال سلمة بن الاكوع اشتد فكنت عند ورك الناقة ، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل ، ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنخته ، وخرجت فلما وضع ركبته في الأرض اخترطت سيفي فضربت رأس الرجل فندر) [2] .

وليس ثمة طريقة أنجح من الصمت والكتمان أمام وسائل مخابرات الأعداء وان البوح بالأسرار العسكرية يعتبر خيانة في حق الجندي يؤاخذ عليها ، وللعلماء في قتله قولان لما روي أن عليا رضي الله عنه قال : (بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود ، وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعه إلى أناس من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ يا حاطب ما هذا . . قال : يا رسول الله لا تعجل علي ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش ، ولم أكن من أنْفَسِها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت كفراً ولا ارتداداً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : قد صدقكم فقال عمر ، يا رسول الله ، دعني أضرب عنق هذا المنافق) [3]

ومما يدخل في مجال التخطيط ، إثارة الحرب النفسية وتوهين العزائم بنشر

---

(١) سورة الممتحنة الآية الأولى .

(٢) معنى فندر : سقط ، وما بعدها انظر مسند (أحمد)٢/ ٤٥ سنن أبي داود ٢/ ٤٤ . مسلم ٢/ ١٣٧٤ .

(٣) الظعينة : المرأة فتح الباري ٦/ ١٤٣ .

الشائعات ، وبث أسباب الفرقة في صفوف الأعداء ، وإظهار قوة المسلمين التي ترهب العدو وتشل حركته وتضعف قواه . .

وقد استعمل رسول الله ﷺ في فتح مكة أسلوب توهين القوى ، فأمر قادته بإشعال النار ليلاً حينما أشرف المسلمون على مكة ، وبعث العباس إلى قريش ليبث في نفوسهم الذعر من جيش المؤمنين ومن قوته الروحية والمادية ذلك لأن الرسول ﷺ يريد أن يدخل مكة دون قتال وأن تستسلم قريش استسلاماً حقناً للدماء وحرصاً على النفوس والأعراض واحتراماً لحرمة مكة ، مع أن الله تبارك وتعالى قد أحلّها له ساعة من نهار ولم تحل لأحد قبله ولا لأحد بعده . .

واستعمل الرسول ﷺ أسلوب إظهار القوة والغلبة في معظم المعارك التي خاضها ضد الشرك . . حدث سعيد عن قتاده قال : (ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة[1] ثلاث ليالٍ)[2]

قال ابن الجوزي : إنما كان يقيم ليظهر تأثير الغلبة وتنفيذ الأحكام وقلة الاحتفال ، فكأنه يقول : من كانت فيه قوة منكم فليرجع إلينا[3]

واستعمل الرسول ﷺ أسلوب (العطاء المادي) لتفتيت عضد الكافرين ، وبعثرة جمعهم ، وتأليب بعضهم ضد بعض وإقصاء جماعة منهم عن ميدان المعركة وعن مواجهة المسلمين ، ففي غزوة الأحزاب التي تمالأت بها قوى الكفر والضلال مجتمعة ضد الحق وأهله ، عرض رسول الله ﷺ على غطفان من المعونات الغذائية والعطاء المادي أضعاف ما عرضه عليهم يهود خيبر وثمارهم مقابل أن ينسحبوا من الحصار .

وكان المسلمون في تخطيطهم الحربي يحسنون اختيار الوقت المناسب لمفاجأة العدو ، فقد كان التوقيت لغزو بني قريظة بعد انسحاب الاحزاب يوم الخندق مباشرة ، وقال رسول الله ﷺ يحث المؤمنين على سرعة الحركة والخروج

---

(١) العرصة بفتح العين والصاد وسكون الراء : البقعة الواسعة من الأرض من غير بنيان

(٢) فتح الباري ٦ / ١٨١ سنن أبي داود ٢ / ٥٨ .

(٣) المصدر السابق .

للقتال : (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)[1]

وقد عقد رسول الله ﷺ صلح الحديبيه مع قريش في العام ـ السادس من الهجرة ـ ليفرغ في العام الذي يليه لتصفية الجبهة الشمالية من اليهود في خيبر وفدك وغيرها من المواقع[2] . وبعد اقتلاع جذورهم وإخماد خطرهم تهيأ لفتح مكة في السنة الثامنة الهجرية[3] .

وقد عمل المسلمون بحفر الخندق أسلوبا جديداً وخطة جديدة لم يسبق لها مثال في تاريخ العرب الحربي وتساءل المشركون : كيف يجتازون الخندق وكيف يصلون إلى المسلمين وكيف يحققون هدفهم ؟ وضاعت الإجابة على هذه الأسئلة مع الرياح التي ثارت والعواصف الرملية التي اجتاحت المنطقة ، فأطفأت النار وأكفأت القدور وطرحت الأبنية وقلعت الخيام . .

حتى قال حذيفه بن اليمان : (لا يقر لهم قدر ولا نار ولا بناء)[4] وقال أبو سفيان : (يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة . . . ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل)[5] .

ولم يهمل المسلمون العامل الاقتصادي في التخطيط الحربي ، ذلك لأن الاقتصاد عصب الحياة ، فاذا شلت حركته ، وضربت موارده الاساسية خارت قوى العدو وجبن وضعف ، وارتد أدراجه خائباً .

وقد استعمل الرسول ﷺ العامل الاقتصادي لمحاربة قريش مكة فقطع عليهم طريق التجارة الساحلي ، وقطع عنهم طريق نجد الداخلي ، وذلك بعقد معاهدات مع أحلاف قريش الذين يقيمون على الطرق التجارية .

وهكذا فقد كان للمسلمين تخطيطهم الحكيم ، وأسلوبهم البارع الذكي في

---

(١) فتح الباري ٧/ ٤٠٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٢١ ، ٣٤٢ ، ٣٦٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٣١ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ٢٤٣ .

(٥) نفس المصدر السابق .

« فدخلت في القوم والريحُ وجنودُ الله تفعل بهم ما تفعل . . لا تقر . . الخ »

استغلال الظروف لمعالجة الأمور المعضلة ، ولقد كان الرسول ﷺ مثلاً أعلى للجدية والصمود والتخطيط الدقيق في مواجهته الأحداث ، ومثلا أعلى لمعالجة الأمور بالحكمة والذكاء .

اقتناء الأسلحة والتدريب عليها :

لعل من أهم العوامل الحربية التي تؤثر في أساسيات المعركة وفي توجيه دفة القتال اقتناء الأسلحة ، ذلك لأن السلاح أكبر قوة مادية في يد الجندي والقائد على السواء وبقدر ما تقتني الدولة من أسلحة بقدر ما تكون مهابة مرهوبة الجانب من العدو والصديق . .

والاسلام حريص كل الحرص على اقتناء أجود الاسلحة وأمضاها وأحدثها وأكثرها ملاءمة للعصر ولأسلوب الدفاع والهجوم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَعِدُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُوْنَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِيْنَ مِنْ دُوْنِهِمْ لاَ تَعْلَمُوْنَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[1] . .

وقال رسول الله ﷺ : (ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي)[2]

يقول القرطبي قد خص رسول الله ﷺ القوة بالرمي وإن كانت تظهر بإعداد غيره من الأسلحة وآلات الحرب لكون الرمي أشد نكاية في العدو وأسهل مؤنة[3]

وقال الرسول ﷺ في الخيل ، وقد كانت من أهم وسائل الحرب : (الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) وفي رواية : (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[4] .

وقال:(من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة)[5]

---

(١) الأنفال / ٦٠

(٢) رواه مسلم من حديث عقبه بن عامر

(٣) فتح الباري ٦ / ٩١

(٤) البخاري ٦ / ٥٤

(٥) البخاري ٦ / ٥٧

وقد حث رسول الله ﷺ على صناعة الأسلحة ، بقوله (إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة . . صانعه يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ، ومنبله . . فارموا واركبوا ، وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا)[1]

كما نهى رسول الله ﷺ من تعلم الرماية أن يترك ممارستها والقيام بها على أكمل وجه حتى ينساها ، وينسى أصول استعمالها ، فقال (. . ومن ترك الرمي بعد علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها)[2]

وقال أيضاً : (من علم الرمي ثم تركه فليس منا (أو فقد عصى)[3] . رواه ابن ماجه بلفظ (فقد عصاني)

وكان الرسول ﷺ يشجع دائماً على التمرين على الرماية ويزكي حماسهم بمشاركتهم في الرماية ، ذكر البخاري في باب التحريض على الرمي حديث سلمه ابن الأكوع أن رسول الله ﷺ قال : (ارموا فأنا معكم كلكم)[4] . .

وكان للمسلمين ملابس خاصة للقتال ، وقد اتخذ رسول الله ﷺ درعاً ومغفراً ، ولأمة يرتديها إذا عزم على القتال أو خرج في سبيل الله مجاهداً . .

وكان العرب يتنافسون في اقتناء الخيل ، ويتفاخرون بها ، إذ كانت أنفس أموالهم وعدتهم ويدخلون حلبة السبق بها ، وكانوا يصنفونها إلى أصناف كل صنف خاص لأداء عمل معين وتحقيق غاية مقصودة وكانوا يميزون بينها ويفضلون الأجود على الجيد ، ويستحسنون أنواعاً للقتال وأخرى للمرابطة . .

وقد روي أنهم كانوا (يستحبون إناث الخيل في الغارات البيات ، ولما خفي من أمور الحرب ، ويستحبون الفحول في الصفوف والحصون ولما ظهر من أمور الحرب)[5]

ومن الأسلحة التي يعتز بها المقاتل المسلم السيف والرمح والقوس والنبل

---

(١) رواه أبو داود وابن حبان عن عقبه بن عامر يرفعه . انظر فتح الباري ٦ / ٩١

(٢) رواه أبو داود وابن حبان . انظر فتح الباري ٦ / ٩١

(٣) صحيح مسلم ٣ / ١٥٢٢

(٤) فتح الباري ٦ / ٩١

(٥) فتح الباري ٦ / ٦٧

والترس . روى ثابت عن أنس رضي الله عنه قوله : (استقبلهم النبي ﷺ على فرس عري[1] ما عليه سرج ، في عنقه سيف)[2]

وعلى هذا فالإسلام يأمر أمراً جازما بإعداد كل وسائل القوة وأنواع السلاح ولئن خص الخيل بالذكر فلأنه أجودها وأفضلها ولكن الوضع لا يثبت على حال واحد ، وعجلة الزمان لا تقف وقد جدَّت أسلحة وتنوعت وسائل القتال مع اختلاف الأزمان والبيئات ولكل نوع منها مكانه ووقته المناسب ، والسلاح الأفضل هو الأشد نكاية في العدو والاعظم للمسلمين نفعا ، وهذا الأمر يختلف باختلاف أحوال العدو وباختلاف حال المجاهدين ، وذلك ما يعلمه أصحاب الخبرة .[3]

أخلاق المسلمين في القتال :

لم يعرف التاريخ قديماً أو حديثاً فاتحاً أرحم ولا أرأف ولا أعدل من المسلمين . أي ورب الكعبة ، شهادة نطق بها العدو كما نطق بها الصديق وقالها المبغض كما قالها المحب . وإنها لشهادة حق وعدل .

ولا تتضح الصورة الفعلية لرحمة الإسلام إلا إذا ألممنا إلمامة سريعة بما يفعله غير المسلمين في الحرب ، يروي المستشرقون أن الحروب الصليبية في الشام قد هدفت إلى استئصال المسلمين استئصالاً نهائياً ، لذلك فقد كانوا يذبحون ويقتلون كل من تقع يدهم عليه شيخاً عجوزاً كبيراً جليلاً ، أو امرأة مسنة أو طفلاً رضيعاً ، حتى أصبح الدم كبرك الماء تسبح فيه الخيل إلى نحورها ، (وعند دخول الحملة الصليبية إلى بيت المقدس ، بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م الموافق ٣ رمضان سنة ٤٩٣ هـ) ذبح أكثر من سبعين ألف مسلم حتى سبحت الدواب الى صدورها في الدماء ، وفي أنطاكية قتلوا في الطريق أكثر من مائة ألف مسلم)[4] .

وقد أعدمت روسيا أكثر من ثلاثة ملايين من المسلمين في تركستان

---

(١) عرى بضم العين وسكون الراء اي ليس عليه سرج ولا يقال في الادميين انما يقال : عريان ، قاله ابن فارس وهي من الاستعمارات النادرة (انظر فتح الباري ٦/ ٧٠) .

(٢) المصدر السابق

(٣) الفتاوي لابن تيمية ٢٨ / ١٢

(٤) حاضر العالم الإسلامي ١ / ٢١٨ .

وحدها . . وفي سنة ١٩١٨ م أصدر لينين أمراً بالزحف على البلاد الإسلامية في روسيا وسارت الجيوش بالدبابات والطائرات والمدافع تدمر وتحصد ما في طريقها وفي نهاية العام تم لها الاستيلاء على جمهورية (إيديل اورال) وشمال القوقاز وحكومة خوقند . . وغيرها من البلدان الإسلامية . .

(ونشرت جريدة أزفستيا في عددها الصادر ١٥ يوليه سنة ١٩٢٢ م ـ تقريرا للرفيق لينين عن مجاعة القرم ـ نتيجة نقل الروس ما في الجزيرة من أقوات ليضطروهم للتسليم :

بلغ عدد الذين أصابتهم محنة الجوع في شهر يناير (٣٠٢, ٠٠٠) مات منهم (١٤, ٤١٣) ارتفع عددهم في شهر مارس إلى ٣٧٩, ٠٠٠ ، مات منهم ١٩, ٩٠٢ بلغ في أبسريل ٣٧٧, ٠٠٠ مات منهم ١٢, ٧٥٤ ، وفي يونيه ٣٩٢, ٠٧٢)[١]

وعدد الذين يقتلون وينفون من بلادهم وتصادر ممتلكاتهم ويعذبون ويرمون في السجون المظلمة لتنهشهم الكلاب وتخمشهم القطط بسبب اختلاف الدين ، في كل زمان ـ ويزداد التنكيل ويشتد العذاب قسوة بسبب الإسلام أكثر من أن يحصى ، وهذه قضية تحتاج إلى إفراد سجلات خاصة بها ونكتفي بهذه الإشارة السريعة لنعود إلى موضوعنا الأصلي وهو أخلاق المسلمين في الحرب . .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلاَ تَعْتَدُوْا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ ﴾[٢] ويدخل في النهي عن الاعتداء النهي عن المثله والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع ، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة[٣] .

وفي صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : (أغزو باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً)

---

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي د . على محمد جريشه وزميله ص ١٢٨ .

(٢) سورة البقرة / ١٩٠

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٢٨ .

وعن ابن عباس قال : (كان رسول الله ﷺ اذا بعث جيوشه قال : اخرجوا بسم الله فاتوا في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع)[1]

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : (وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة ، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان)[2]

وكلما تصور الإنسان سماحة الإسلام وثبت إلى ذهنه صورة الرسول الكريم ﷺ وهو داخل منتصر عزيز الجانب إلى مكة ، وأهلها خائفون مذعورون من انتقام المنتصر ، ولكنه ﷺ ضرب مثلاً أعلى للعفو والصفح عند المقدرة وعلى هذه السنة سار الخلفاء من بعد رسول الله ﷺ . قال أبو بكر رضي الله عنه موصياً أحد قواده :

(لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً ولا تقطعن شجراً مثمراً ، ولا تخربن عامراً ، ولا تعقرن شاة ، ولا بعيراً إلا لمأكل ولا تحرقن نخلاً ، ولا تفرقنه ولا تغلل ولا تجبن)[3] .

ومن مظاهر رأفة الإسلام في الحرب :

(١) النهي عن قتل من لا يقاتل من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة . .

(٢ النهي عن الاعتداء على البيع والصوامع وهي معابد اليهود والنصارى . .

(٣) أن لا يبدأ المسلمون بمقاتلة الأعداء إلا بعد الإعلان عن الحرب بمدة تكفي لوصول خبرها إليهم[4]

(٤) من المبادىء الهامة التي يلتزم بها المسلمون التوقف عن القتال اذا طلب العدو ذلك أو كف شره وأذاه عن المسلمين أو انسحب طالبا توقيع المعاهدة . .

---

(١) صحيح مسلم ٣ / ١٣٥٧ ، ورواه الامام أحمد بزيادة (ولا أصحاب الصوامع) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣٢٨ .

(٢) رواه أحمد ، المصدر السابق

(٣) موطأ مالك ٢٧٧ - ٢٧٨

(٤) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ٤٧٤

(٥) معاملة الأسرى : إن موقف الإسلام من الأسرى موقف إنساني يتسم بالعدل والرحمة وحسن المعاملة ، فقد أوصى الرسول ﷺ بالأسير خيراً ، وأمر ألاّ يفرق بين صبي وأمه ، وأن يقدم له الطعام والشراب والكساء ، وأن يداوى إن أصابه جرح . .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[١] . .

وقال سبحانه : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾[٢] وللعلماء في حكم الأسير أقوال : أشهرها وأقواها أن يترك أمر الأسير إلى إمام المسلمين يفعل ما هو أنفع للمسلمين وأقوى شوكة للإسلام ، وهذا هو مذهب الجمهور ومن العلماء من قال : يقتل أو يستبدل . أو يُمَنُّ عليه بالفداء بمال أو بنفس ومن العلماء من يرى أن يمن عليه بإطلاق سراحه أو بمفاداته بالمال أو بأسرى المسلمين[٣] .

المعاهدات في الاسلام :

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤]

فالاسلام يشرع للمسلمين أن ينشئوا معاهدات سلمية مع من شاؤا رجوعاً إلى السلم الأصلي الذي يحكم العلاقات بين الدول ، ولهم أن يقرروا وقف القتال حسب ما يحقق مصلحة للإسلام وإعزازاً لكلمة المسلمين ، ولهم الحق كذلك أن ينشئوا معاهدات بقصد التحالف الحربي والتعاون على عدو مشترك ، إذا كان في هذا الأمر ما يحقق مصلحة الأمة الإسلامية . إذ أن الحرب في نظر الإسلام ما هي إلا علاج مؤقت لبعض الحالات الناشزة ولبعض الأوضاع غير المستقرة ،[٥] فإذا

---

(١) سورة محمد الآية / ٤

(٢) سورة الدهر / ٨

(٣) فتح الباري ٦ / ١٥١ - ١٥٢

(٤) سورة الأنفال / ٦١ - ٦٢

(٥) الإسلام عقيدة وشريعة ص ٤٧٦ .

استتب الأمن واستقر الوضع وأمن شر العدو وارتفعت راية الإسلام عالية خفاقة كريمة فليس ثمة داعٍ إلى القتال أو حاجة للحرب ، لأن الحكم المترتب على العلم يدور معها وجوداً وعدما ، فينعدم إذا انعدمت ويزول بزوالها .

قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَعْتَدُوْا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ ﴾[1]

وقال سبحانه : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوْا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوْا اللهَ وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِيْنَ ﴾[2] . .

وقال جل من قائل : ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِيْنَ ﴾[3]

وقد عاهد الرسول ﷺ يهود خيبر وبني النضير حينما هاجر إلى المدينة المنورة ، وقبل أن يعايشهم معايشة سلمية على أن يكفوا أذاهم وعدوانهم عن المسلمين ، وألا يظاهروا عدواً ضد المسلمين فكانت هذه أول معاهدة عرفتها الإنسانية أثبتت حق تقرير حرية التدين وحرية العقيدة .

وعاهد الرسول ﷺ مشركي قريش معاهدة الحديبية سنة ست للهجرة بقصد أن يوقف القتال فترة زمنية مؤقتة ، وكان من بنودها أن يرجع الرسول ﷺ ومن معه إلى المدينة في هذا العام ويحضروا إلى مكة في العام الذي يليه لأداء عمرة القضاء . .

الشروط التي يجب تحققها في المعاهدة : [4]

يشترط الإسلام لتكون المعاهدة صحيحة ثلاثة شروط هي :

(١) أن لا تكون المعاهدة مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال الرسول الكريم : (كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل) . . وعلى هذا فكل شرط تستباح به حرمة الشخصية الاسلامية أو يفتح به باب للاعداء ينفذون منه للإغارة على المسلمين أو تضمن بنداً يحمل على الإنقاص من شأن المسلمين وعلى تفريق كلمتهم فهو غير معتبر شرعا . .

---

(١) سورة البقرة / ١٩٠

(٢) سورة البقرة / ١٩٤

(٣) سورة البقرة ١٩٣

(٤) انظر الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ٤٧٦ وما بعدها .

(٢) أن تكون المعاهدة قائمة على التراضي من الطرفين قياساً على عقود المعاوضات المالية ، أما إذا كان هناك إلزام من أحد الطرفين أو كانت المعاهدة نتيجة لضغوط دولية ، فلا قيمة حقيقية لهذه المعاهدة .

(٣) أن تكون المعاهدة بينة الأهداف واضحة العبارة لا تحتمل التأويل أو التفسير ، أما إذا كانت غامضة العبارة غير واضحة الهدف تمكن من التلاعب بألفاظها ، فلا قيمة لها شرعا لأنها من باب الغش الذي يفسد كل عقد فضلا عن معاهدة يتوقف عليها أمن البلاد . .

الوفاء بالمعاهدات :

إذا استكملت المعاهدة شروطها من وضوح وعدم مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله وعدم إخلال بأمن الدولة المسلمة ، كان الوفاء بها واجباً دينياً يسأل عنه المسلمون أمام الله ، وكان النكوث بها غدراً وخيانة ، أما إذا أخل العدو بها فعندئذ لا عهد لهم على المسلمين ، بل كان على المسلمين أن يهبوا متكاتفين متعاونين على دفع قوى الشر والعدوان . .

ويتحقق النكث بالمعاهدة إذا خالف العدو الإلتزام بشروطها ، أو إذا ظاهر أحداً من قوى الشر ضد المؤمنين أو اذا اعتدى على المتحالفين مع المسلمين ، وحينئذ تفقد المعاهدة حرمتها .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِيْنَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوْكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوْا عليكم أَحَداً فَأَتِمُّوْا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾[1]

وكذلك فإن المعاهدة تفقد حرمتها إذا دلت القرائن الواضحة على عزم العدو على النكث بالشروط المتفق عليها . قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِيْنَ ﴾[2] وقد تتغير الظروف التي وقعت بها المعاهدة ويصبح من المفسدة الالتزام بها فيباح في هذه الحالة الإخلال بها شريطة أن ينذر العدو بأمر نقض

---

(١) سورة التوبة / ٤

(٢) سورة الأنفال / ٥٨

المعاهدة قال الله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُوْلِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَرَسُوْلُهُ ﴾[1] .

هذا هو حكم الإسلام في معاهدات السلام التي تحفظ الأمن الدولي وحقوق الانسان . .

يقول الشيخ شلتوت رحمه الله (وجاءت دول الحضارة الحاضرة فخدعت الناس بما سمته (القانون الدولي العام) وبما سمته (الهيئات الدولية المحكمة) وها هي ذي المجازر البشرية على أيديهم في أكثر أقاليم المعمورة ، تنطق بخداعهم وفشلهم كما تنطق بكذبهم إذا قالوا : السلم أو قالوا حقوق الانسان ، والإنسانية منهم براء[2] ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ ، الَّذِيْنَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُوْنَ عَهْدَهُمْ فِيْ كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُوْنَ ﴾[3] . .

وبعد ، فتلك هي أهم مبادىء الجهاد في الشريعة الاسلامية ، وإنها لمبادىء رائعة تظهر سماحة الدين الإسلامي وإنسانيته وعدله ، كما تظهر حزمه وقوته وأنه لا يقبل الهزيمة ولا الضيم ولا الاستكانة ولا الهوان ولا الجبن ولا الخور .

وإن ديناً يحرر الإنسان من سيطرة الهوى والشهوة ، ويحرر الوجدان من الطغيان والقسوة ، ويحرر العباد من الظلم والذل ، ويحرر البلدان من الفساد والضلال لهو دين جدير أن يخترق شغاف القلوب فيملؤها رحمة وعدلاً ومودة وحباً ، وهو دين جدير أن يسود ويمجد ، ويتمسك المؤمنون به بإيمان مطلق ويدعون له بإخلاص وهدى .

التضامن الإسلامي

الحاجة الى التضامن الإسلامي

إن التضامن الإسلامي مطلب كل فرد مسلم ، وأنشودة كل مؤمن ناضج

---

(١) سورة التوبة / ٣

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ٤٧٨ .

(٣) سورة الأنفال / ٥٥ ـ ٥٦

الفكر متقد المشاعر متيقظ القلب ، وغاية كل مجتمع عاش في ظل الاسلام ونعم بعدالته ورحمته وتسامحه ، وتمتع أخوانه برغد العيش ، وعرف في حماه مدلول الأمن على النفس والشرف والمال ، وذاق في رحابه طعم الحرية في أوسع معناها وفي شتى ميادينها : حرية الرأي والفكر والكلمة ، حرية العقيدة والعبادة ، حرية التعلم وممارسة العمل المشروع .

والتضامن في واقع الأمر عنوان القوة ومفتاح المجد ، ومقدمة حصينة لكل فلاح ولكل نجاح في الشؤون العامة والخاصة ، والداخلية والخارجية . وهو قانون هام من قوانين المجتمعات المتحضرة الراقية ، وعنصر جوهري من عناصر الحياة السعيدة الملائمة للفطرة الانسانية .

والتضامن الإسلامي لازم من لوازم عقيدة التوحيد ، ودعامة من دعائمها . وإذا كانت الحاجة ماسة في كل وقت لتضامن المسلمين واجتماع كلمتهم واتحاد صفوفهم فهي أبرز ما تكون في هذا الوقت المعاصر ، الذي تجمعت فيه قوى الشر والعدوان ضد المسلمين ، يشير إلى هذا الوضع ما صح في دلائل النبوة عن النبي ﷺ (توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعي الأكلة إلى قصعتها) فقال قائل : أومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : (لا ، بل أنتم كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن) ، قال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : (حب الدنيا وكراهية الموت)[1]

فالظروف الحالية المحيطة بالمسلمين تفرض عليهم حتمية التضامن الاسلامي ووحدة الصف وإزالة الخلافات الجانبية ، ذلك لأن العدو متربص بهم الدوائر ، وهو يتخذ من تفرق كلمتهم ومن تمزق وحدتهم منفذاً لتحقيق أغراضه الدنيئة ، وأفكاره الاستعمارية الخبيثة .

لقد استطاعت الصهيونية أن تلم شعثها من عوالم مختلفة ، وآفاق متباعدة وأن تتفق مع الشيوعية الملحدة ومع الاستعمار الحاقد لتتخذ موطنا لها في قلب البلاد العربية بعد أن اقتطعت هذا الجزء الغالي من الديار الاسلامية . ومن هذا الموطن يبيتون مؤامراتهم ويضعون خططهم لتمزيق الفكر الاسلامي وللقضاء على

---

(١) رواه أبو داود وأحمد بن حنبل ٥/ ٢٢٥ .

الوحدة الإسلامية ، ويعملون متآزرين لإثارة الفتن والأزمات والاضطرابات السياسية والاقتصادية في البلاد الإسلامية ، ولم يتوانوا لحظة واحدة عن إثارة أسباب العداء بين طبقات الشعب الواحد ، حتى أصبحت الجماعة الواحدة والشعب الواحد طبقات متحاربة متباغضة ، وانتقلت ساحة المعركة من ميدانها الحقيقي إلى داخل البلد الواحد ، فهذا يميني وذاك يساري ، وهذا تقدمي وذاك رجعي ، وهذا يقتل ذاك وبعضهم يأخذ برقاب بعض باسم هذه الشعارات الجوفاء التي أثارها العدو الماكر . .

والدعوة إلى التضامن الاسلامي لا تأتي تلبية للحاجة الملحة وللظروف المحيطة بالأمة الاسلامية فقط وإنما هي استجابة لأمر إلهي ، وتحقيق لمطلب ديني . قال الله تعالى :﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ . لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] وقال جل من قائل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[2] وقال جل شأنه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾[3] وقال سبحانه : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[4] وقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[5] .

وقال رسول الله ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)[6] وقال : (المؤمن أخو المؤمن لا يخذله ولا يقتله ولا يسلمه بحسب امرىء من الإثم أن يحقر أخاه . وقال : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر)[7]

---

(١) الأنفال/ ٦٣ .

(٢) الحجرات/ ١٠ .

(٣) الأنعام/ ١٥٩ .

(٤) آل عمران/ ١٠٣ .

(٥) آل عمران/ ١٠٥ .

(٦) رواه البخاري والترمذي والنسائي وأحمد

(٧) البخاري

والتضامن الإسلامي ضرورة لازمة لحماية ديننا ودنيانا من الغزو الفكري الهدام الذي يحمل راية الإلحاد والفوضوية والإباحية والشيوعية ، ويعتقد ـ افتراءً وبهتاناً وظلماً وعدواناً ـ أن الدين أفيون يخدر الشعوب .

والتضامن الإسلامي تعبير صادق عن المشاعر القوية التي تحملها قلوب الملايين من المسلمين الذين يحسون إحساساً حقيقياً بالروابط الثقافية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية . . يؤكد هذا تزايد أعداد حجاج بيت الله الحرام عاماً بعد عام ، واجتماع قادة الفكر ، والعلماء وأهل الحل والعقد ، وتبادلهم وجهات النظر في القضايا الإسلامية المطروحة على بساط البحث .

يقول الأستاذ محيى الدين القابسي في كتابه التضامن الاسلامي : (. . . والتضامن الإسلامي ما هو إلا مبادرة طبيعية من الشعوب الاسلامية التي تعدّ بالملايين لإرساء قواعد حياتها على أسس متينة في عالم تتنازعه المطامع وتمزقه الأهواء وتشن فيه المبادىء الملحدة حرباً شرسة ضد التراث الحضاري الانساني [1]

أسباب انقسام الأمة الاسلامية :

لقد تكالبت قوى الشر ووقفت مجتمعة ، متحدة ، متماسكة الأيدي ، توجه للعالم الاسلامي ضربات قاسية وشديدة مريرة ، ضربات دامية مرهقة ، ضربات حاقدة لئيمة خبيثة ، حتى كادت تذهب بالأنفاس وتخمد الحركة ، لولا أن منّ الله علينا من فضله فأبقى لنا بقية من حياة ، وشعلة نلتف حولها ، ومبادىء تجمع بيننا وأهدافا نرنو إلى تحقيقها وقبلة نتوجه إليها وشعائر نؤديها مجتمعين ، وركائز يقوم عليها كياننا الإسلامي الممتد عبر الدهور والأزمان ، منذ انبثاق فجر التوحيد إلى يومنا هذا .

أجل لقد تحالفت قوى الشر والضلال من صهيونية ماكرة شرسة ، وصليبية حاقدة مريعة وشيوعية خبيثة لئيمة لتطعن في الجسم الإسلامي والكيان المؤمن بالله المعتصم بحبله . وكانت **أولى تلك الضربات** إبعاد الخلافة الإسلامية عن الوجود والواقع الإنساني ، والإطاحة بها وتحطيم دعائمها ، وبث الدعاية الباطلة ضدها ،

---

(١) التضامن الإسلامي ص ٢٨ .

واتهامها بشتى الاتهامات الشنيعة كيلا يفكر المسلمون بإعادتها مرة ثانية ، وألصقوا بها تهمة التخلف والرجعية والتعارض مع النهضة والتقدم والرقي ، واتهموا الخلافة العثمانية بالرجل المريض الضعيف الذي يجب بتره والتخلص منه وألا يبقى وصمة تخلف في جبين البشرية ، ودبَّروا المؤامرات الخبيثة للقضاء على الخلافة ، وصدرت المؤلفات الضخمة لتطرح مائة مشروع لتقسيم الممتلكات العثمانية بين الدول الأوروبية على أن يكون للصهيونية نصيب منها ، وخدعت بعض الأشخاص من الأتراك والعرب وغررت بهم وضللتهم بادعاءاتها الباطلة وأمسكتهم معاول فاتكة حادة قوية لهدم الكيان الإسلامي ولتمزيق وحدته وتفتيت قوته ، فنادوا كالببغاوات بالقومية ودعوا الى تتريك اللغة وأجهزة الحكم والادارة ، والمكاتبات الرسمية ، وكان ما كان من مأساة القومية لسلخ تركيا عن الوطن الإسلامي . . وعلى الطرف الآخر . . العربي . . ظهرت دعوة قومية ، تسير في الاتجاه السابق نفسه .

الضربة الثانية : استطاعت أن تمزق كيان الأمة الإسلامية إلى أجزاء متعددة وأن تجعل من الدولة القوية دويلات ضعيفة ، ومن البلد الواحد المتعاضد بلدان متباعدة متعادية . . كل هذا بقصد أن تبسط الدول الأوروبية الاستعمارية سلطانها على هذه الأجزاء ، وفعلا أخضعتها إلى سلطتها الأوروبية ، لتستغل خيرات تربتها وأرضها ، ولتستخدم طاقاتها البشرية لتحقيق أطماعها العدوانية والاقتصادية ، ولتبني مجدها على أكتاف أناس عاملين بصمت ، مأخوذين بشدة الضربات المتتالية . . فسوريا ولبنان خضعتا لنفوذ فرنسا ، ومصر والسودان والعراق والأردن خضعت لأطماع انجلترا ، والشمال الأفريقي خضع لسيطرة فرنسا ، والهند ـ لسلطان إنجلترا ، وبذل الاستعمار ما بذل لإبعاد الوسط الأفريقي عن التأثر بالدين الإسلامي .

الضربة الثالثة : تمكنت من بذر بذور الاختلاف والشقاق والتناصر والتصارع بين تلك الدويلات الإسلامية ، فلكل دولة اتجاهها السياسي المختلف عن اتجاه الدولة الأخرى ، ولكل منها أهدافها الخاصة ، فتلك تعمل لحساب الشيوعية الماركسية ، تنفق لها وتدعو لمبادئها ، وتحمل شعارها ، وتدور في فلكها حيث دارت يمنة أو يسرة ، وأخرى تعمل وفق سياسة غربية استعمارية لا تستطيع حراكاً ، ولا تنفذ خطة إلا بإذن من سيدتها وباشارة منها .

الضربة الرابعة : إنها صنعت على عينها وبيدها رجالاً من العرب المسلمين ينادون بفصل الدين عن الدنيا ، وإبعاد الدين عن الحياة ، وترك ما لقيصر لقيصر وما للدين للدين ، هذه الدعوة الضالة المضلة هدفت أول ما هدفت إلى إبعاد الإسلام عن مجالات الحياة لأن عدد المسلمين في البلاد العربية يبلغ (٩٨٪) .

وأشد من هذا وذاك أنها أبعدت الرجال المخلصين الواعين عن سياسة الدول الاسلامية وإدارة دفة الحكم باتهامهم ـ زوراً وبهتاناً ـ اتهامات باطلة ، أو بقتلهم بأيد عابثة حقيرة . . وقد لعبت دوراً مريعاً في تبني السياسة الانفرادية لكل دولة ، وإحداث اضطرابات داخلية لشل حركة التقدم والنمو والازدهار الحضاري والعمراني ، ولتوجه الجهود الإسلامية نحو أمور جانبية تبعدهم عن التفكير في أهمية لم الشمل والوقوف على قدم واحدة لإيجاد حلول جذرية ناجعة لتفادي الأخطار المحدقة .

وكل هذه الضربات القاسية الشديدة كانت بمعاول العدو المشترك (الاستعمار والصهيونية والشيوعية) . . وقد أثرت هذه الضربات الشنيعة في كيان الأمة الإسلامية فتمكنت من تفريق كلمتها وتمزيق وحدتها .

تاريخ الدعوة إلى التضامن الإسلامي :

ليست دعوة التضامن دعوة حديثة برزت في القرنيين الأخيرين وليست وليدة لأوضاع معينة ، وإنما هي دعوة عريقة قديمة ، رافقت بزوغ فجر الإسلام ، وعاشت مع المسلمين في كل وقت تجتمع فيه كلمتهم ، وتتحد فيه قواهم .

وقد ظهرت هذه الدعوة حديثاً بصدق وحرارة في بداية النهضة الإسلامية على يد السيد جمال الدين الأفغاني ـ رحمه الله ـ حينما نادى بأهمية جمع المسلمين في هيئة واحدة تحمل اسم (الجامعة الإسلامية) ودعا إلى ضرورة إقامة حياة نيابية أساسها الشورى وعمادها كفالة حقوق الإنسان ، وركيزتها المساواة بين أفراد البشرية[1] .

---

(١) التضامن الإسلامي للأستاذ هلال الفاسي / من مجلة التضامن العدد (٢) السنة الأولى ـ ذو الحجة ١٣٩٣ ـ هـ .

ولكن هذه الدعوة النبيلة لم تلق مناصرة ولا عونا من المسلمين لأسباب عدة ، في مقدمتها :

(١) الاستعمار البغيض الذي حط ثقله وبث سمومه في المجتمعات الإسلامية

(٢) نظرة العرب والمسلمين إلى الغرب نظرة إكبار وإجلال بسبب ما أحرز من تقدم صناعي وعلمي .

(٣) كثرة الثورات والانقلابات الداخلية التي أضعفت كيان الأمة الإسلامية وعاقت دون نهضتها ودون تجمع صفها ووحدة كلمتها .

وقد اختفت دعوة الجامعة الإسلامية حينما ذهبت الخلافة الإسلامية أو قل حينما قضي عليها ، وتوزعت البلاد الإسلامية الى وحدات مستقلة ، ونشأت أوطان وحدود وملوك وطوائف وشعوب . . ولكن تلك الأوضاع السيئة التي هزت كيان المسلمين هزاً عنيفاً لم تستطع أن تقضي قضاء مبرماً على الدعوة إلى التضامن الإسلامي في كل ظرف يظهر فيه مخلصون ومصلحون ودعاة .

أول مجتمع قام على أساس التضامن :

لقد كان أول مجتمع يرتفع بنيانه على أسس متينة من التضامن الإسلامي مجتمع المدينة المنورة ، حينما هاجر إليها رسول الله ـ ﷺ ـ مع الفئة المؤمنة التي تركت ديارها وأموالها إرضاء لله ولرسوله ، وفي المدينة آنذاك ثلاث طوائف لا تعرف الوئام ولا الانسجام ، وهي الأوس والخزرج واليهود . وكان أول ما فعله رسول الله ﷺ أن بذر بذور الحب في قلوب الجماعة المؤمنة نحو الله تعالى ، ونحو المؤمنين بعضهم بعضاً ، وإذا ما خالط الحب شغاف القلوب فإنه يطبعها على الرقة والليونة والإخلاص لله تبارك وتعالى ، وعند ذلك يتنازل المؤمن عن كثير من مصالحه الشخصية وأغراضه القريبة في سبيل الغاية المثلى والدعوة العظيمة ، وعندها تتحول الأثرة والأنانية وحب الذات إلى الإيثار والبذل والتضحية من أجل الآخرين ، ويَمَّحي الحقد والحسد والضغينة ، وينمو التسامح والتواد والتراحم والتعاطف .

وعلى هذا الحب أقام ﷺ دعائم الأخوة الإسلامية ، فآخى بين الأوس

والخزرج ، وبين الأنصار والمهاجرين ، حتى أصبح مجتمع المدينة المنورة متحد الأهداف والمشاعر ، يتحرك نحو اتجاه واحد ، ويحقق أعمالاً متكاملة منسجمة ، وإلى هذه الروح الطيبة والمشاعر النبيلة أشار القرآن الكريم بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَهَاْجَرُوْا وَجَاهَدُوْا بِأَمْوَالِهِم وَأَنْفُسِهِمْ فِيْ سَبِيْلِ الله ، وَالَّذِيْنَ آوَوْا وَنَصَرُوْا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾[1] .

وقوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِيْنَ الَّذِيْنَ أُخْرِجُوْا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُوْنَ فَضْلاً مِنَ الله وَرِضْوَاناً ، وَيَنْصُرُوْنَ الله وَرَسُوْلَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُوْنَ والَّذِيْنَ تبوَّؤا الدَّار وَالْايْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّوْنَ مَن هَاْجَرَ الَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُوْنَ فِيْ صُدُوْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوْتُوْا وَيُؤْثِرونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصة وَمَنْ يُوْقَ شُح نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ﴾[2] .

وبعد ذلك سمح رسول الله ﷺ للمسلمين أن يهادنوا اليهود ، وأن يعايشوهم معايشة سلمية ولما تظهر عليهم بوادر عداوة للمسلمين وللدعوة الاسلامية ، فعوملوا على الظاهر من أمرهم ، وكفل لهم الإسلام حرية العقيدة والعبادة على أن يخضعوا حكماً ونظاماً وقانوناً للشريعة الإسلامية . ومن ثم وقّع رسول الله ﷺ معهم معاهدة الصلح ، ويذكر ابن قيِّم الجوزية في كتابه زاد المعاد نص المعاهدة وهو : (هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : إنهم أمة واحدة من دون الناس ، وإن من تبعنا من يهود ، فإنَّ له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم إلا من ظلم أو أثم . .)[3]

وهكذا أقرت هذه المعاهدة التعايش السلمي مع غير المسلمين في ظل الحكم الاسلامي ، ولم يسبق أن عرف التاريخ كفالة الحريات العقيدية والعبادية قبل أن يأتي الإسلام بتقريرها . قال الله تعالى : ﴿ لاَ يَنْهَاْكُمُ الله عَنِ الَّذِيْنَ لَمْ

---

(١) سورة الأنفال / ٧٣ .

(٢) الحشر / ٩ .

(٣) زاد المعاد ٢ / ٨٨ .

يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ . وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[2] .

أسس التضامن الإسلامي

إن للتضامن الإسلامي أسساً هامة يقوم بها وينهض عليها . أشير إليها فيما يأتي :

(١) الأخوة الإيمانية :

لم يعتبر الإسلام رابطة الجنس أو اللون أو اللغة أو الوطن سبباً قوياً ودعامة ثابتة ودعوة حقيقية في تكوين الأمة ، ذلك لأن هذه العوامل التي تقوم عليها مجتمعات اليوم قاصرة عن تحقيق وحدة إنسانية عامة ، وعاجزة عن الجمع بين مختلف الأجناس والألوان والأوطان ، وإنها دعوة للتفريق لا للجمع وللاختلاف لا للأتلاف ، ولإثارة الفتن والعداوات ، ولهذا فإن الإسلام سما على كل هذه الاعتبارات وربط قيام الأمة وإنشاء الدولة بالمبادىء والقيم التي تليق بكونه دعوة للناس كافة ، وللبشرية جمعاء ، فجعل عقيدة التوحيد أنبل وأقدس وأعظم رباط يوحد بين قلوب المسلمين على اختلاف الديار والقوميات واللغات ، وقد كانت الأخوة الإيمانية أصدق تعبير عن هذه الوحدة المشتركة . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[3] .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ

---

(١) سورة الممتحنة / ٨ ـ ٩ .

(٢) سورة العنكبوت / ٤٧ .

(٣) سورة الحجرات / ١٠

وَأَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ . وَاعْتَصِمُوْا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً وَلاَ تَفَرَّقُوْا وَاْذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاْء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوْبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ﴾[1] وبين سبحانه ان من أهم أواصر الاخوة الدعاء لهم بظهر الغيب ، فقال : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِيْنَ سَبَقُوْنَا بِالإِيْمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِيْ قُلُوْبِنَا غِلّاً لِلَّذِيْنَ آمَنُوا﴾[2]

وقال ﷺ : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله)[3] .

إن آصرة هذه الأخوة تعلو كل آصرة وتفوق كل رابطة ، بل إن رابطة النسب تهوي منهارة لا شأن لها ولا حول ولا قوة أمام هذه الرابطة الشامخة ، قال تعالى : ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوْا آبَاءَهُم أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيْرَتَهُمْ﴾[4] .

ومن القواعد الفقهية المستنبطة من وحي القرآن والسنة المطهرة أن المسلم لا يرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث المسلم ، ولو كان أباه أو أخاه أو ابنه ، فهل بعد الأخوة الإيمانية من صلة أو قرابة ؟ إن الاخوة الإيمانية رابطة قوية جديرة أن توحد بين النفوس وأن تؤلف بين القلوب ، وكانت هذه الرابطة الجامع الوحيد الذي يجمع أبناء المسلمين في عهد النبوة الخالد ، وكان المجتمع آنذاك يشعر بحرارة هذه الرابطة وبقوتها وأثرها على النفس الانسانية وعلى المجتمع ، فكان المجتمع كله رجاله ونساؤه شبابه وشيوخه جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

(٢) التكافل الاجتماعي :

التكافل الاجتماعي أساس قوي من أسس بقاء الأمة كريمة عزيزة ، وهو قانون هام يدل على رقي التجمع الإنساني وسمو غاياته ، ورفعة أهدافه ، ونبل مقاصده .

---

(١) سورة آل عمران / ١٠٣ .

(٢) سورة الحشر / ١٠ .

(٣) رواه مسلم

(٤) سورة المجادلة الآية / ٢٢ .

وللتكافل جانبان : جانب مادي وآخر معنوي .

أما الجانب المادي فيتمثل بالمعونة المالية التي تقدم إلى الفقراء وذوي الحاجة والغارمين ، كما تتمثل بإغاثة الملهوف وتفريج كربةالمكروب ، وإطعام الجائع ، والعطف على البائس ، وإقالة ذوي العثرات ، وإعانة صاحب العيال والمقل ، وقد دعا القرآن الكريم في آيات كثيرة العدد إلى بذل المال ، وجعل الإنفاق على الفقراء والمساكين فريضة مقارنة للصلاة ، وركنا من أركان الإسلام وحقا للفقير في مال الغني ، كما حض على بذل الزيادة عن الزكاة وسماها الصدقة ، وهو فضلاً عن هذا وذاك حث على السخاء والجود وإقراء الضيف وبذل الفضل لذوي الحاجة ، وإكرام القريب والجار ذي القربى ، والجار البعيد ، وأن يعود من له فضل من الملبس والمأكل والمركب على من لا فضل عنده .

وقد أطلق القرآن الكريم على الإنفاق في وجوه البر أسماء متعددة : (الزكاة ، الانفاق ، الصدقة ، الاحسان ، الحق ، في سبيل الله) وجعل من أجمل ثمار الإنفاق توطيد أواصر المحبة بين الغني والفقير ، وإشاعة الأمن في المجتمع ، فالغني آمن على ماله ، والفقير لا يعدم قوته وقوت عياله ، ومن ثمار الإنفاق أيضا أن الفقير يتطلع إلى تحسين وضعه وحاله فيسعى جاهداً في مواطن الكسب لرفع مستواه المالي وليصبح في مصاف الأغنياء لينعم على غيره ، ويشعر بحلاوة اليد العليا وبلذة البذل والسخاء[1] .

الجانب المعنوي من التكافل الاجتماعي يتمثل في تعاون المسلمين لإحقاق الحق وإقامة العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما يتمثل بالإرشاد والتوجيه وتمحيض النصح ، والمشاركة الوجدانية بين فئات المسلمين وباختصار فإنه عبارة عن الشعور بالمسؤولية الجماعية ، وإن كل فرد يمكن أن يتحمل مع الآخرين تبعاتهم وأن يعينهم على أداء واجباتهم .

وقد جعل الإسلام هذا النوع من التكافل فريضة على كل مسلم فقال جل من قائل : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُوْنَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

---

(١) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ٤٥٦ .

المُنْكَرِ وَأولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ)[1] وقال سبحانه : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُوْنَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[2] وقال أشرف المرسلين وأكرم الخلق ﷺ : (الدين النصيحة ، قالوا لمن يا رسول الله ، قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[3] وقال عليه الصلاة والسلام : (المؤمن مرآة المؤمن)[4] .

وقد كان المسلمون يتكافلون فيما بينهم ، فيعلم عالمهم جاهلهم ، ويرشد كبيرهم صغيرهم ، ويوجه ذو الخبرة قليل الدربة والدراية ، ويجل الصغير الشيخ المسن ، وينصح المحكوم الحاكم والجندي القائد ، والمغمور المشهور ، والمرؤوس الرئيس . . ويتقبلها الحاكم والقائد والرئيس بنفس طيبة راضية ، لا يرى في ذلك غضاضة أو إنقاصاً من قدره بل يراه نصحا وتوجيها وإعانة على إقامة العدل وإقراراً للحق . .

وما زال المسلمون بهذا التكافل الذي يشعر بوحدة صفهم وجمع كلمتهم ، حتى دب الخلاف فيما بينهم ، وتبدلت المفاهيم في أذهان كثير منهم ، وأقبلوا على الدنيا ومتاعها ، وشغلوا عن واجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً على مركزهم الوظيفي أو الاجتماعي . وهكذا تخلى كثير من المسلمين عن وجوب التعاون على إحقاق الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونظرت كل جماعة منهم على أنها وحدة مستقلة عن الأخرى لا ينظمهم عقد ولا يَجمعهم رابطة ، وهذه هي الآفة الكبرى في تبعثر وحد المسلمين وتشتيت شملهم ، وتمزيق كيانهم .

والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُوْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِيْ الأَرْضِ إلاَّ قَلِيْلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُم وَاتَّبع الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا ما أُتْرِفُوا فِيْهِ وَكَانُوا مُجْرِمِيْنَ ﴾[5] .

---

(١) سورة آل عمران / ١٠٤ .
(٢) سورة التوبة / ٧١ .
(٣) رواه البخاري والترمذي والنسائي والدارمي
(٤) رواه ابو داود
(٥) سورة هود / ١١٦ .

وجاء على لسان المصطفى ﷺ : لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي ودخل النقص عليهم في دينهم نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم ولم يمنعهم العصيان عن مخالطتهم فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ففرق كلمتهم وأذلهم وشتت شملهم . ثم قرأ : ﴿ لُعِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِيْ إِسْرائِيْلَ عَلى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُوْنَ . كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُوْنَ ﴾[1] .

(٣) الشورى :

الشورى دليل على رقي التجمع الإنساني ، وركيزة من ركائز الدولة الناهضة المتقدمة ، وعنوان على تماسك الأمة وتعاون أفرادها وتآزرهم للوصول إلى معرفة الطريق السوي والرأي السديد والفكر الناضج . وفي الشورى تتلاقح الآراء ، وتظهر المواهب ، وتسمو الأفكار . ولذلك فقد لفت القرآن الكريم أنظار المسلمين إلى أهمية الشورى ففيه سورة كاملة تعرف باسم سورة الشورى ، يقول سبحانه فيها : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ . وَالَّذِيْنَ يَجْتَنِبُوْنَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ وَإِذا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، وَالَّذِيْنَ إذا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرونَ ﴾[2] .

وقد أمر سبحانه نبيه الكريم باستشارة الصحابة فقال في محكم تنزيله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيْظَ الْقَلْبِ لانْفَضوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِيْ الأمرِ ، فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾[3] .

وثبت أن النبي ﷺ كان يستشير الصحابة في سياسة الدولة الداخلية والخارجية ، وفي توقيع المعاهدات مع أهل الكتاب وفي كافة الأمور التي لم ينزل بها وحي ، ومن أبرز استشارات الرسول ﷺ التي تتحدث عنها السنة النبوية ، استشارته في شأن أسرى بدر ، فأشار عمر بن الخطاب بضرب أعناق الأسرى ، وأشار أبو بكر بالمن عليهم وأخذ الفداء منهم ، وكانت نفس الرسول ﷺ الرحيمة

---

(١) سورة المائدة / ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) سورة الشورى / ٣٦ - ٣٩ .

(٣) آل عمران / ١٥٩ .

الرقيقة تميل إلى التلطف في المعاملة حتى مع الأعداء ، فأخذ برأي أبي بكر دون رأي عمر فنزلت آيات شديدة العتب لأن الموقف يتطلب إظهار قوة المسلمين وإعزاز شوكتهم ، وإبراز منعتهم وسؤددهم .قال سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيا والله يُرِيْدُ الآخِرَةَ والله عَزِيْزٌ حكِيْمٌ . لَولاَ كتَابٌ مِنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيْمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ ﴾[1] .

والأساس الذي يقوم عليه مبدأ الشورى في الإسلام كفالة حرية الآراء والأفكار ما لم تمس أصلا من أصول العقيدة أو العبادة [2] .

وكيفية انعقاد مجلس الشورى والإدلاء بالآراء من الوسائل التي تختلف باختلاف الازمان والبيئات ولذا لم يحدد القرآن الكريم والسنة المطهرة نظاماً خاصاً أو هيئة معينة لها رحمة بالناس وتوسعة عليهم ليترك تحدده بما يتناسب مع الظروف والأحوال ونظام الدولة وسياسة الحكم والإدارة العامة .

وللشورى أصول هامة ينبغي أن تعتمد عليها وهي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، قال جل من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَطِيْعُوا الله وَأَطِيْعُوا الرَّسول وأُولي الأَمْرِ مِنكُمْ)[3] وطاعة الله تعالى تتمثل بتطبيق أوامره واجتناب نواهيه وتحكيم كتاب الله في أنظمة الدولة الداخلية منها والخارجية . وطاعة رسوله ﷺ تتمثل بتطبيق سنته المطهرة ، وأولو الأمر هم أهل النظر فيما علموا من أمور مما يدخل تحت تخصصهم وفهمهم وادراكهم .

ويترجح العمل برأي واحد من الآراء بأحد الاعتبارات التالية : (١) قوة الدليل والبرهان .

((٢) إجماع أغلبية الأعضاء على هذا الرأي .

(٣) ما يتلاءم مع صالح العقيدة والدين أو بما يحقق مصلحة الجماعة الإسلامية .

(٤) العدل :

العدل شعار الأبرار ، وعنوان تقدم المجتمع ، وأساس الحكم الصالح ،

---

(١) سورة الأنفال / ٦٧-٦٨ .

(٢) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ٤٦٠ .

(٣) سورة النساء الآية / ٥٩ .

وسمة الدولة الناهضة ، في ظله يطمئن الناس على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ويسعدون بحياة تتيح الفرص لذوي المواهب والقدرات والكفاءات والعدل قوة يهب الأمة القدرة لأن تكون مهيبة الجانب عزيزة السلطان أمام الدول الصديقة والمعادية .

وقد حث القرآن الكريم على إقامة العدل في الأمور جميعها لتبقى للأمة عزتها ومنعتها ، ولتحفظ بكيانها و شخصيتها النقية التقية الطاهرة . فأمر المسلم أن يلتزم بالعدل بقوله وفعله وأن يلتزم به مع قريبه وأمه وأخيه ، ومع البعيد : الصاحب أو الجار ، مع المحب ومع العدو ، مع الغني ومع الفقير ، في شؤونه الخاصة والعامة ، وأمر بالعدل في العهود والمواثيق وفي أداء الأمانة والادلاء بالشهادة .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾[1]

وقال جل من قائل : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوْا ، اعدلوا هو أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيْرُ ﴾[3] .

الخلافة وأثرها على وحدة الأمة الإسلامية :

انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقد ترك في الأمة شيئين ما إن تمسكت بهما لن تضل بعده ، وهما كتاب الله تبارك وتعالى وسنته ﷺ . وتولى شؤون المسلمين بعد الرسول الكريم ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ . ونعم الناس في ظل الخلافة بالسعادة الدنيوية والراحة النفسية ، ولو وازنا بين أوضاع المسلمين في حكم الخلافة الإسلامية وأوضاعهم بعد زوال الخلافة لوجدنا الفرق شاسعاً والبون واسعاً ، من حيث الرفاه والأمن والعزة

---

(١) سورة النحل / ٩٠ .

(٢) المائدة / ٨ .

(٣) سورة الشورى / ١٥ .

والسيادة ووحدة الصف واتفاق الكلمة ، واحترام العالم وإجلال المفكر والأخذ برأي الفقيه ، وتقدير الناس وإكرام الضيف وتقبل النصح والإرشاد ، والقيام على حدود الله ، وعقد راية الجهاد . والتقدم الحضاري في المجال الاقتصادي والعمراني والتعليمي والمدني والسياسي . . ففي ظل الخلافة نعم الناس برغد العيش والتكافل الاجتماعي والأدبي والمالي ، وجمع الكلمة واتخاذ الموقف الموحد إزاء الأخطار الخارجية .

(. . . حكام مسلمون ، آمنوا بالله واليوم الآخر وحافظوا على كتاب الله وسنة رسوله ، ووقفوا عند حدودهما والتزموا بأحكامهما ، حضروا المساجد مع الرعية ، وفتحوا لهم الأبواب . . . يتقبلون المحاسبة والإنكار ، كان الجهاد في سبيل الله رائدهم ، لم يتخلوا عنه في أحلك الظروف التي مرت بهم ، لأنهم آمنوا بقول الصديق ـ رضي الله عنه ـ (ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا) لذلك كثرت الفتوحات الاسلامية في زمانهم وكانوا قادة الفتح الإسلامي . .)[1]

تعريف الخلافة :

الخلافة في اللغة مصدر (خلف) . يقال : (خلفه خلافة ، أي كان خليفته وبقي بعده ، والخليفة السلطان الأعظم ، والجمع خلائف وخلفاء)[2] فالخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفاً لغيره ، ومن ثم سمي من يخلف رسول الله ﷺ في تنفيذ الأحكام الشرعية وإدارة الحكم وقيادة الجيش خليفة ، ويسمى أيضا (إماما) تشبيها بإمام الصلاة في الاقتداء به واتباعه . ولهذا يقال (الإمامة الكبرى) .

وعلى هذا فالخليفة من يخلف رسول الله ﷺ في الأمة الإسلامية ، ويقال له (خليفة) بإطلاق اللفظ ، من غير قيد ، ويقال له : (خليفة رسول الله) . واختلف في صحة تسميته خليفة الله ، فأجازه بعض علماء الفقه اقتباساً من الخلافة العامة التي هي للآدميين المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[3] وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

---

(١) الإسلام بين العلماء والحكام للأستاذ عبد العزيز البدري ص ١٥ .

(٢) لسان العرب .

(٣) الآية (٣٠) من سورة البقرة .

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾[1] ومنع الجمهور منه . وقد نهى أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - عنه لما دعي به ، وقال : (لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ) والاستخلاف إنما هو في حق الغائب ، وليس في حق الحاضر[2] .

أما الخلافة في الاصطلاح : فهي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن رسول الله ﷺ ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها . إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين والدنيا)[3]

وذهب السلف الصالح إلى أن أساس كل حكم في الإسلام الخلافة ، وإن منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة رسول الله ﷺ من المؤمنين له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم فيقيم فيهم حدوده وينفذ زمام الأمة ، وكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه . فهو الحاكم الزمني والروحي للمسلمين .[4]

وعلى هذا فالخليفة هو الذي يتولى شؤون المسلمين ويحكم بشريعة الله ويطبق أنظمة الاسلام في كافة مجالات الحياة الدنيا ، اجتماعية كانت أو اقتصادية ، أو تعليمية أو سياسية داخلية أو خارجية ، وليس معنى قولنا (بيده زمام الأمة) أنه يحكم في الأمة حسبما يمليه عليه هواه أو تأمره به نفسه ، كلا ! بل إنه ملزم بتطبيق الدستور الإسلامي وهو مسؤول أمام الناس عن مدى تطبيق النظام الاسلامي .

والخلافة صورة أصيلة وتعبير صادق لجمع كلمة المسلمين وتوحيد أنظمتهم الدنيوية وسياستهم الخارجية ، وهي عنوان على اتحاد وضعهم وقوتهم المعنوية والمادية . وهناك أدلة كثيرة تدعو إلى جمع المسلمين في كافة بلادهم وجميع

---

(١) الآية (١٦٥) من سورة الأنعام . وانظر الآية (٣٩) من سورة فاطر .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٦ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٦ .

(٤) تاريخ الإسلام د . حسن ابراهيم . ص ٦٣ .

أقطارهم تحت قيادة موحدة ، من هذه الأدلة قوله ﷺ (يد الله مع الجماعة) (من فارق الجماعة فاقتلوه) قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اقْتَتَلُوْا فَأَصْلِحُوْا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إحداهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوْا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوْا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِيْنَ ﴾ [1]

واجب المسلمين لتحقيق التضامن الإسلامي :

لقد أدرك العالم الإسلامي أن السبب في تخلفه عن ركب التقدم الحضاري ، والعلم (التكنولوجي) ، إنما يرجع إلى الاستعمار الذي امتص القوى الوطنية ، والأنشطة العقلية ، والطاقات الجسمية التي كانت تعمل بدأب وإخلاص في سبيل استقلال البلاد ، هذا الاستعمار الذي خيم بثقله وقسوته وجبروته على الوطن الاسلامي أمداً طويلاً ، استغل فيها خيرات البلاد واستخدمها في سبيل نهضته الحديثه وتقدمه الصناعي وعمرانه الشاهق ومصانعه المشادة . . وإذا كان المستعمر قد أدخل بعض التحسينات على الجوانب العمرانية في البلاد المستعمرة فقد قصرها على المدن التي يسكنها هو نفسه .

وقد أدرك العالم الاسلامي أيضاً الجهود الشيوعية المكثفة التي عملت منذ ظهور ثورتها على إقامة دولة إسرائيل في فلسطين (قلب الوطن الاسلامي) . ففي اكتوبر عام ١٩١٧ م أي في نفس الشهر الذي وقع فيه الانقلاب الشيوعي أعلنت الحكومة السوفييتية تأييدها لإقامة ما سموه (حق اليهود في فلسطين) وقد سبق وعدهم هذا وعد بلفور[2] وهناك منافع متبادلة بين السوفييت والصهيونية تظهر بوضع الخطط وفي تنفيذها رويداً رويداً ضد فلسطين والعرب والمسلمين ، وفي تقدير السوفييت أن انتشار الماركسية في البلاد العربية معناه زوال (سوء التفاهم) بين اليهود والعرب ، وهم يضعون مسؤولية سوء التفاهم هذا على عاتق (الرجعية) العربية التي ترفض أنصاف الحلول فيما يتعلق بالحق الإسلامي والعربي في فلسطين وغيرها .

(فالرجعية العربية تحول دون وحدة (القوى التقدمية) في منطقة الشرق

---

(١) الآية / ٩ من سورة الحجرات .

(٢) التضامن الإسلامي للأستاذ محيي الدين القابسي ص (١١٠) .

الأوسط ، والقوى التقدمية في تعريف السوفييت هي القوى الماركسية بصرف النظر عن قوميتها (عربية أو يهودية) والدعوة القومية هي ـ في نظرها ـ دعوة بورجوازية تغذيها الإمبريالية ، والدعوة الدينية هي دعوة رجعية ، ومتى زالت هذه (الأفكار) أمكن لليهود كما يصرح السوفييت علناً أن يعيشوا بسلام على الأرض المغتصبة في ظل الوطن الأم للاشتراكية العالمية الماركسية اللينينية)[1] .

وإزاء هذا الواقع الذي لا يخفى على أحد لا بد من توحيد كلمة المسلمين وجمع أفكارهم وقلوبهم على الدين ، ففيه وحده نستطيع أن نرجع كما كنا أمة عزيزة بدينها قوية بتأييد الله لها ، مستبشرة بنصر الله .

والمسلمون أفراداً وشعوباً مدعوون لإيجاد الأسباب التي من شأنها أن تحقق التضامن الإسلامي ، ولعل هذه الأسباب تنحصر في دائرتين **الدائرة الأولى** : عمل من داخل الجماعات الاسلامية ليبث الوعي الديني ويوقد جذوة الإيمان في القلوب ويبعث القوة في العزائم .

الدائرة الثانية : عمل من قادة المسلمين لاستقطاب وحدة الصف الاسلامي وتعزيز قوة ترهب عدو الله وتقف في وجه البغي والعدوان .

أما العمل الداخلي فيتجلى في الدعوة إلى الاصلاح ، إصلاح نفسي ذاتي من داخل الفرد وأعماقه ، وإبعاده عن كل ما يورث الخمول والدعة والركون إلى متاع الحياة الدنيا وزينتها . وإصلاح في علاقة المؤمن مع أخيه المؤمن ليشاركه أفراحه وآماله وأتراحه وآلامه وقد تصحح مفهومه نحو العبادة التي كادت تتحول إلى عادات خالية من معنى الخشوع والخضوع لله تعالى ، والعمل على توسيع مدلولها ، لتشمل كل نشاط إنساني ، مهما كانت صبغة هذا النشاط ، ومهما كان شأنه .

يقول الأستاذ سيد قطب : (جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا مسلمين إذا هم أعدوا نشاط العبادات وفق أحكام الإسلام بينما هم يزاولون كل نشاط من أنشطة المعاملات وفق منهج آخر لا يتلقونه من الله ، ولكن من إله آخر ، هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به الله ، وهذا وهم كبير ،

---

(١) التضامن الإسلامي للأستاذ محيي الدين القابسي ص ١١٢ ـ ١١٣ .

فالإسلام وحدة لا تنفصم وكل من يفصمه إلى شطرين على هذا النحو ، فإنما يخرج من هذه الوحدة أو بتعبير آخر يخرج من هذا الدين . وهذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يلقي باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه ويريد في الوقت ذاته أن يحقق غاية وجوده الإنساني)[1] .

ومن الملاحظ أن هناك فئة من المسلمين فصلت الدين عن الدنيا فظنت ـ خطأ أو غباء ـ أنها إذا أدت بعض الشعائر الدينية أصبحت مسلمة ، ولو تعاملت بالربا ولو انتهكت أعراض المسلمين ولو استولت على أموالهم غصباً وزوراً وعدواناً . وهناك فئة أخرى تعتبر نفسها مسلمة إذا صلت أو صامت ، وقد تبيح لنفسها أن تخرج عن آداب الإسلام وأخلاقه وعاداته الاجتماعية ، فلا تحظر من اختلاط الرجال بالنساء ، ولا تحترس من ميوعة الشباب ، ولا من ارتكاب بعض المعاصي التي قد تخرجها ، من ربقة الإسلام وعهده .

وهناك أناس كثيرون وأسر إسلامية فهمت أن العبادة عبارة عن أداء ركعات محدودة في أوقات معينة ، فاذا أدتها ، وخرجت من محرابها نسيت الغاية المثلى التي شرعت من أجلها العبادة ، ونسيت أن الحياة بأسرها محرابا للعبادة وان الإنسان في عبادة حتى ولو كان في حالة بيع أو شراء أو زراعة أو عمارة أو تطبيب أو مداواة للأدواء . .

هذه الجماعات كلها لم تفهم معنى الإسلام حقيقة الفهم ، ولم تدرك معنى العبادة الإدراك الكامل ، ولم يتكون في باطنها الوازع الديني ، والخوف من الرقابة الإلهية . أجل هذه الجماعات لم تَتَرَبَّ التربية الإسلامية اللازمة ، ولم تتعلم العلم الاسلامي ولم تتخلق بالأخلاق الإيمانية ، ولم تُخضع نفسها لشريعة الله ولمنهج الله ، أو إنها ربيت بأيد غير نظيفة من الأغراض المنكرة والنوايا الخبيثة من استشراق وتبشير ، وقد ينحو الاستعمار منحى تشويه الحقائق الإسلامية فيقلب الصورة رأسا على عقب ، ويغير القيم ، ويبدل المفاهيم ، ثم يوصل هذه المفاهيم المغيرة والحقائق المتلاعب في صورتها إلى أبناء المسلمين عن طريق مدارسهم وجامعاتهم الأوروبية والأمريكية أو التبشيرية في الديار الإسلامية .

---

(١) فقه الدعوة ٦٠ ـ ٦٧ .

هذه الفئات موجودة في المجتمعات الإسلامية فعلاً وهي تحتاج إلى نصح وإرشاد وتوجيه وتعليم ، تحتاج إلى دعاة أقضَّت مضجعهم الأحوال غير الطبيعية للمسلمين فباتوا يخططون خطط الخير ويفكرون في سبل إعادة المشاعر الدينية إلى النفوس والأحاسيس الإسلامية إلى القلوب ، وفضلاً عن هذا فهم يسعون لإنقاذ الأفكار والعقول من شبهات الاستشراق ويعملون على عرض الإسلام أبيض نقياً كما أراده الله تعالى وكما بلغه عنه رسوله الكريم محمد الأمين ﷺ .

إن فكرة التضامن لا تتحقق إلاّ إذا اتحدت مشاعر الأفراد على اساس عقدي روحي دائم لا يتغير بتغير الظروف والأحوال والمصالح ، وهذه المشاعر لا يمكن أن تلتقي على مجرد العصبية أو الجنسية أو المنافع الاقتصادية فقط ، لأنها عوامل غير ثابتة وغير صالحة لأن تبنى عليها وحدة إسلامية إنسانية ، وما كان هذا شأنه فهو غير قادر على الاستمرار في توحيد الشعوب ، والأمة التي يجمع بين أفرادها الحق لا يمكن أن يفرق بينها الباطل . وقد جمعت عقيدة التوحيد بين المسلمين جميعاً بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم وأوطانهم وعصبياتهم وهذه العقيدة نفسها قادرة اليوم على أن تجمع بين المسلمين وأن تؤلف بين قلوبهم وأن توحد مقاصدهم وأهدافهم .

وأما العامل الخارجي فيتجلى بأن تتمثل حكومات البلاد الاسلامية الإسلام بمعناه الحقيقي عقيدة ونظام حياة ونظام حكم . ومن الخطأ البالغ أن تفصل أية حكومة بين التصور الاعتقادي وبين نظام الحكم والأنظمة الاجتماعية ، ذلك لأن الاسلام يختلف اختلافاً كلياً عن سائر المعتقدات وسائر الأديان التي عبثت بها الأيدي وغيرت من خط مجراها تغييراً جوهرياً ، وقد بقي الإسلام الدين الوحيد الموثوق فيه الذي سلم ـ بفضل الله وحفظه ـ من الأيدي الآثمة والأفكار المضلله ، وهو الدين الذي ينبع منه كل تصور لكل نواحي الحياة وجوانبها . وحينما يكون الشعب مسلماً بإنه لا يرضى بغير دين الله حكماً ولا بغير شرع الله شرعاً ، والانفصام بين التصور الاعتقادي والنظام الاجتماعي والسياسي لا يفيد إلا التمزق الفكري والاجتماعي ، وإنه يوقع فئات المجتمع بربكة أيما ربكة وحيرة أيما حيرة .

وقد آن للمسلمين أن يعرفوا الطريق السوي الذي يجب أن يسلكوه ، والغاية

النبيلة الجامعة التي يجب أن يسعوا إلى تحقيقها ، بعد أن عرضت عليهم في عالم التجربة (أفكار) و (مذاهب) و (عقائد) (شرقية) و (غربية) وقد أثبت الواقع زيف وبطلان تلك المذاهب ، والعقائد ، ولم يبق إلا الإسلام . . والإسلام وحده ، هو الذي ينقذ الأمة الإسلامية من الغزو الفكري المريع ومن الصراع العنيف . . وهو الذي يضمن لها السلامة والاطمئنان والأمن .

(إن جدية المعركة وخطورتها لتتطلب من كل مسلم أن يتدبر أبعاد الوضع الدولي القائم وأن يعرف حقيقة الدوافع التي تحرك أحداثه وانعكاسات هذا التحرك على عالمه الإسلامي وما ينشأ عنها من قضايا ومشكلات .

وتلك الجدية نفسها تتطلب من كل مسلم ألا يقف مكتوف اليدين إزاء ما يرى من تآمر علني تتشارك فيه القوى العالمية الشريرة ، ويثق بأن ليس في الدنيا ، بعد الله تعالى ، سوى إخوته المسلمين في شتى بقاع الأرض ، فهم وحدهم الذين يتألمون لألمه ويفرحون لفرحه ، وهم ـ وحدهم من بني البشر جميعا ـ المستعدون للتضحية من غير أن ينتظروا الجزاء بعيدا عن حسابات المصالح وفواتير الأرباح)[1]

وغير خاف على أحد أن السبيل الوحيد لتقدم الأمة الإسلامية والدعامة الأولى في بناء نهضتها والسبب الأكيد لعزها هو تمسكها في دينها وتبنيها لفكرة التضامن الإسلامي على أسس من عقيدتها ومنهاجها الإسلامي .

دواعي التضامن الاسلامي :

إن كل شيء في الإسلام عقيدته ، لغته ، نظمه مناهجه ، يدعو إلى التضامن وجمع الكلمة ووحدة الصف ، فالعقيدة هي التي تجمع بين قلوب المؤمنين وتشد من أزرهم كلما داهمهم خطب أو حزبهم أمر أو ألم بهم مكروه ، وبالعقيدة وحدها يشعر المؤمن بالتعاطف والتآخي مع أخوته المؤمنين وان عاشوا في أدنى أو أقصى المعمورة . وحينما اتحد المسلمون على أساس العقيدة تمكنوا من مواجهة جحافل الصليبية في حروبها الطاحنة ، ومن ردها على أعقابها خاسرة نادمة .

---

(١) التضامن الإسلامي للأستاذ محي الدين القابسي ص ١٦ .

والمؤمنون يعتقدون أن اللغة العربية هي اللغة الأم الجامعة ، لأنها الوسيلة الحقيقية لأداء الشعائر الدينية صحيحة ، فالمؤمن يحس بالألفة والمودة تجاه من يتكلم العربية ، وتجاه من يقرأ القرآن عبادة وتقرباً لله تعالى ، وإن كانت تفصل بينهما آلاف من الأميال ، إذ أن الشعور القلبي والرابطة الإيمانية لا تتوقف على قرب الزمان والمكان .

والإسلام دين وعقيدة ولغة ومنهج حياة يحيا ـ في قلوب سبعمائة مليون من المسلمين ـ مختلفين في الأوطان والديار والقوميات والعصبيات ، ومع ذلك فهو يطبعهم بطابع خاص ويوجههم وفق تعاليمه وأخلاقه ومناهجه الخاصة ، وهم يختلفون في أسلوبهم المعاشي ومنهاجهم الحياتي عن غيرهم من الشعوب والأمم التي لا تدين بالاسلام ، والمناهج الواحدة والغايات الواحدة كفيلة لإيجاد الألفة الروحية بين المسلمين ، وكفيلة بأن تجعلهم أمة متميزة عن غيرهم من الشعوب والأمم .

والإسلام لا يسمح بالتكتل على أساس العنصرية أو اللون أو الجنسية أو الطائفية لأنه الدين الذي جاء لصهر كافة هذه العوامل في وحدة دينية جامعة لا تفرق بين عربي وتركي وكردي أو أحمر وأبيض إلا بالتقوى . . وهو الدين الوحيد الذي جاء ليقرر الأخوّة الإيمانية وإنها أخوة تفضل عن أخوة النسب وتعلو عليها ، بل هي الرابطة الحقيقية التي تجمع بين مختلف الأجناس والعصبيات .

ونرى الرسول ـ ﷺ ـ وهو الإمام والقدوة وهو المثل الأعلى للمسلمين يقيم الروابط الاجتماعية في المدينة المنورة على أساس الأخوة الايمانية دون اعتبار لأخوة النسب ، حتى أن المسلمين كانوا يتوارثون بسبب هذه الرابطة ، فلو لم يكن لها الاعتبار القوي ، ولو لم يكن لها المنزلة العظمى لما جعلت أوثق من قرابة النسب وأقواها أثراً .

وإنه لمن المؤسف حقا أن نجد دعاة الثورية والتقدمية في كثير من بلاد العالم الإسلامية يتحرجون من الدعوة إلى التضامن الإسلامي أمام العالم الغربي المتطور ، فيلجأون إلى طبعها بطابع القومية العربية ظنا منهم ـ غباء أو بسوء نية ـ أنها أنسب للعصر ، وأدعى لأن تحظى برضى الآخرين ، وجهل هؤلاء أن القومية ليست دعوة إنسانية . وأنها ضيقة جداً ومحدودة في حيز مكاني صغير ، وأن

القوميات التي دانت للإسلام قد انصهرت عن طواعية ورضى في بوتقة الاسلام . ثم إن الدعوة للقومية أصبحت شعاراً قديماً ـ وفي عرفهم ـ رجعياً ، إذ إن الدعوات الحديثة تقوم على أساس وحدة المبدأ أو الفكرة ، دون وحدة القومية ويكفي للدلالة على ذلك أن روسيا الشيوعية تضم ما ينيف عن مائة وسبعين قومية . وقد كانت هذه القوميات تخضع للشيوعية مقهورة مغلوبة على أمرها اذ لا يجد الانسان السوي فيها ما يتناسب مع فطرته ومع انسانيته ، وشتان بينها وبين مبادىء الإسلام المثالية الواقعية التي تلتئم التئاما قويا مع الفطرة البشرية . وأين الثرى من الثريا ؟ ويكفي للرد على هؤلاء الذين يخجلون من الدعوة للتضامن الإسلامي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾[1] وقوله جل من قائل : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [2] .

فالاسلام يأبى كل الإباء أية دعوة تدعو لتمزيق كيان الأمة ولتشتيت شمل أبنائها ، أو لتفريق كلمتها ، والقضاء على وحدتها ، وتبديد قوتها ، وإن إثارة فتنة القومية أو الطائفية في المجتمع الاسلامي كفيلة بأن تبذر بذور الحقد والحسد والتناحر والتخاصم في قلوب أفراد هذا المجتمع المتماسك بسبب الدين وحده . وإن الرابطة الايمانية هي التي وحدت بين القلوب وهي التي شيدت صرح التاريخ وهي التي أعلت بنيان المجد والسؤدد التليد .

ولا يخفى أن الاستعمار البغيض لم يستطع أن يبسط نفوذه على الأمة الإسلامية إلا بعد أن فرقها شيعاً وأحزاباً وأقام بينها حواجز مصطنعة ، تتقاطع من أجلها وتتقاتل في سبيل هذه الحدود الاعتبارية التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وشد ما نحزن حينما نعلم أن الخلاف يصل الى عنفوانه ، وإلى درجة سفك الدماء والذهاب بالرجال والمعدات بسبب الحدود المصطنعة . . إنها مسألة مرسومة بريشة العدو الثلاثي المشترك (الصهيونية والشيوعية والصليبية) لإثارة العداوات

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء .

ولتبديد الطاقات والأموال ولِشَغل المسلمين بفتن جانبية تبعد اهتماماتهم عن القضايا الأساسية وعن المشاكل الجوهرية .

وحينما صممت الشعوب الإسلامية على أن تتحرر من نير الاستعمار ، لم تستطع أن تحقق ما سعت اليه إلا بسبب قوة العقيدة ، ووحدة الشعور الديني الذي كان يلهب الحماسة ويشد العزائم ويجمع الشتات ويذكي الكفاح ، ويوحد النضال . .

وعلى هذا فإن طابع الأمة الإسلامية طابع إنساني عالمي ، إنه يتسامى على القومية التي تدعو إلى التكتل على أساس روابط القبيلة أو العرق أو الجنس أو الطبقة الخاصة . . ويتسامى على طابع الرأسمالية التي تساند الأثرياء من أصحاب المال والصناعة ، ولو اقتضى الأمر أن تكون المساندة على حساب الآخرين ومن غير قيد لوسائل الكسب والانفاق ، وهو فوق الاشتراكية التي تساند طبقة العمال مساندة مطلقة على حساب أصحاب رؤوس الأموال[1] .

إن كل العوامل التي تحدث الفوارق في المجتمعات الإنسانية ، من اقتصاد أو طبقية أو عنصرية تزول أمام قوة الإسلام ، وذلك للقدرة الذاتية التي يملكها هذا الدين لاستيعاب كافة مقومات الأمة في الوحدة الإسلامية والرابطة الايمانية . . إن المسلمين يتعبدون بكتاب واحد ، هو كتاب الله العزيز الحميد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ويتجهون جميعاً في عباداتهم إلى قبلة واحدة هي رمز لوحدة الهدف والاتجاه ، وهم جميعاً يسعون لتحقيق غرض واحد وهو رضاء الله رب العالمين . . وهذه هي العوامل الحقيقية لوحدة الأمة الإسلامية ، وهي العوامل الجوهرية التي تدعو إلى التضامن الاسلامي .

إن التضامن الإسلامي أمر تفرضه على المسلمين طبيعة دينهم ووضعهم الجغرافي والاقتصادي وظروفهم السياسية والدولية وتراثهم المشترك الزاهي ، وإنه من الخير أن تتكتل المجتمعات الاسلامية على وحدة الدين وأن يكون كل فرد بالنسبة لأخيه المسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وأن يتعاونوا في سبيل نهضة إسلامية شاملة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوْا اتَّقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ

---

(١) الثقافة الإسلامية على ضوء الكتاب والسنة للدكتور تهامي نقرة ص ٢٣٣ .

ولاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ وَاْعتَصِمُوْا بِحَبْلِ الله جَمِيْعاً ولاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوْا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ . وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُوْنَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ، وَلاَ تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ تَفَرَّقُوْا وَاخْتَلَفُوْا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِيْنَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ . وَأَمَّا الَّذِيْنَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ الله هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوْهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا الله يُرِيْدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِيْنَ ﴾[1] .

وعلى هذا الضوء ينبغي أن ينظر إلى (التضامن الإسلامي) ، فهو حقيقة قائمة بين الشعوب الإسلامية لا يحتاج إلى أكثر من تنسيق وتنظيم وتوجيه .

وليست دعوة التضامن الإسلامي قاصرة على المشاعر النفسية والروابط القلبية والأحاسيس الداخلية ، وإنما تتعدى هذا المجال إلى مجال الاقتصاد والسياسة والقوة الدفاعية .

ففي المجال السياسي وعلى الصعيد الدولي تظهر قضايا إسلامية تحتاج إلى حل سريع ودائم ، وهذه القضايا هي : قضية فلسطين ، وقضية كشمير ، وقضية ارتيريا ، وهناك شعوب مضطهدة في فلسطين المحتلة ولبنان وجنوب افريقيا ، وقبرص . . ولا بد للعالم الإسلامي أن يقف من هذه القضايا موقف الرجل الواحد ، الذي يسعى حثيثا لمناصرتها والذود عن حرماتها . ويبذل الغالي والنفيس من أجل الحفاظ على سلامتها ووجودها وحريتها وأمنها .

وفي المجال الاقتصادي توجد بلاد إسلامية غنية وأخرى فقيرة ، فلا بد من إعداد المشاريع الجمة تحقيقا للتعاون فيما بينها ، ولا بد أيضا من إعداد برامج مشتركة للتنمية الاقتصادية تشمل كافة أوجه النشاط الاقتصادي ، من زراعة وتصنيع وتعمير وتجارة ، ويرافق هذه المشاريع وهذه البرامج خطة علمية لتقدم العلم (التكنولوجي) في العالم الإسلامي على حد سواء للاستفادة منه في مجال

---

(١) الآيات (١٠٢-١٠٨) من سورة آل عمران .

التصنيع والتسلح والتنمية الاقتصادية .

وعلى هذا فالتضامن الإسلامي (دعوة الدين والدنيا في آن واحد لأن الإسلام نفسه دين ودنيا ، ولأنه (عبادة) (ومعاملة) ، فقد حضّ أتباعه على أن يعملوا لدنياهم كأنهم يعيشون أبداً ، وأن يعملوا لآخرتهم كأنهم يموتون غداً ، وليس بين جميع عقائد الدنيا ، روحية ودنيوية عقيدة أقامت التوازن الدقيق بين الدين والدنيا مثلما فعل الإسلام)[1]

وإن سياسة الدول والأمم في العالم قائمة على التكتل والتحالف والانضواء في مجموعات متعاونة يسند بعضها بعضا ، ويدافع بعضها عن بعض ، ويلتمسون لذلك أوهى الأسباب ، فأوروبا الغربية وجدت نفسها واقعة بين العملاقين الكبيرين : أميركا وروسيا ، ووجدت أن تبعيتها لهذا المعسكر أو ذاك إنما يهدد وجودها ومستقبلها وكيانها ودورها الحضاري المتميز ، وكان عليها أن تحزم أمرها ، وأن تختار الطريق الذي يحفظ لها ذلك الكيان ، وهو طريق الوحدة ، رغم ما بين دولها من تناقضات كان يعتقد أنه لا سبيل إلى تخطيها .

وما السوق الأوروبية المشتركة إلا خطوة في سبيل التقارب والتعاون والاتحاد بين الدول الأوروبية الغربية في مضمار الاقتصاد .

---

(١) محي الدين القابسي ، التضامن الإسلامي (ص ١٤) .